

سلسلة المعارف العالمية



حروس تمهيدية
في معرفة القرآن الكريم



مركز الدراسات والبحوث الإسلامية
إعداد: محمد بن المنجد بن المنجد



سلسلة المعارف التعليمية

دروس تمهيدية
في معرفة القرآن الكريم

اسم الكتاب:	دروس تمهيديّة في معرفة القرآن الكريم
إعداد:	جمعية المعارف الإسلاميّة الثقافيّة - مركز نون للتأليف والترجمة
نشر:	جمعية المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الثالثة:	2016م - 1437هـ

© جميع حقوق الطبع محفوظة

سلسلة المعارف التعليمية

دروس تمهيدية في معرفة القرآن الكريم



جمعية الممارق الإسلامية الثقافية
إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الفهرس

المقدمة 11

المحور الأول: فضل قراءة القرآن وآداب تلاوته ومقاصده 13

الدرس الأول: فضل تعلم القرآن وتلاوته 15

مقدمة 17

الحث على تعليم القرآن وتعلمه 17

فضل قراءة القرآن وتجويده وترتيبه 20

الدرس الثاني: أحكام القرآن والآداب الظاهرية لتلاوته 27

مقدمة 29

القرآن نور 30

الآداب الظاهرية لتلاوة القرآن 30

أحكام القرآن الشرعية 33

الدرس الثالث: الآداب الباطنية لتلاوة القرآن 39

مقدمة 41

الدرس الرابع: الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن 49

مقدمة 51

حجاب رؤية النفس مستغنية 51

حجاب الآراء الفاسدة والعقائد الباطلة 52

حجاب شبهة التفسير بالرأي 53

حجاب الذنوب والمعاصي 54

حجاب حب الدنيا 55

59 **الدرس الخامس: مقاصد القرآن**

61 مقدمة

62 الاحتجاجات الإلهية

73 **المحور الثاني: علوم ومعارف قرآنية**

75 **الدرس السادس: أسماء القرآن وأوصافه**

77 معنى القرآن

78 أسماء القرآن

81 أوصاف القرآن

83 لغة القرآن

87 **الدرس السابع: الوحي**

89 الوحي في اللغة

89 الوحي في القرآن

90 أنحاء الوحي الرسالي

91 أنحاء الوحي بالنسبة إلى نبيّنا محمد ﷺ

97 **الدرس الثامن: تاريخ القرآن**

99 مقدمة

99 معنى النزول

100 الأقوال في نزول القرآن

101 فوائد النزول التدريجي

102 أوّل ما نزل من القرآن

104 آخر ما نزل من القرآن

106 المكي والمدني

106 ترتيب النزول

111 **الدرس التاسع: ترتيب القرآن**

113 مقدمة

- 113 نظم كلماته
- 114 تأليف آياته
- 115 ترتيب سورة
- 116 جمع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
- 117 جمع زيد بن ثابت
- 117 منهج زيد

123 **الدرس العاشر: الرسم القرآني**

- 125 أقسام الرسم القرآني
- 126 متباينات الرسم العثماني والرسم القياسي

133 **الدرس الحادي عشر: الإعجاز القرآني**

- 135 معنى الإعجاز
- 135 فلسفة تنوع المعجزات
- 137 المعجزات حسية وعقلية
- 139 التحدي في خطوات
- 140 التحدي في شموله
- 142 سر الإعجاز

147 **الدرس الثاني عشر: صيانة القرآن من التحريف**

- 149 ما هو التحريف؟
- 151 دلالتنا على دحض شبهة التحريف

161 **المحور الثالث: دروس في التفسير**

163 **الدرس الثالث عشر: تفسير سورة الفاتحة (1)**

- 165 خصائص سورة الفاتحة
- 166 أهميتها
- 166 محتوى السورة
- 167 في رحاب سورة الفاتحة

- 171 **الدرس الرابع عشر: تفسير سورة الفاتحة (2)**
- 173 1. مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ
- 176 خطّان منحرفان!
- 179 **الدرس الخامس عشر: تفسير سورة الضحى**
- 181 في رحاب السّورة
- 181 سبب النّزول
- 182 التّفسير
- 183 فلسفة انقطاع الوحي
- 183 الشكر على كلّ هذه النعم الإلهية
- 189 **الدرس السادس عشر: تفسير سورة البينة**
- 191 في رحاب السورة
- 192 ذلك دين القيمة
- 194 خير البرية وشرّها
- 196 عليّ عليه السلام وشيعته خير البرية
- 197 منحني الصعود والسقوط
- 199 **الدرس السابع عشر: تفسير سورة الجمعة**
- 201 في رحاب السورة
- 202 الهدف من بعثة الرسول
- 203 الحمار الذي يحمل الأسفار
- 204 توصيف حال اليهود
- 206 أهميّة صلاة الجمعة
- 207 فلسفة صلاة الجمعة العبادية والسياسية
- 208 دور صلاة الجمعة
- 211 **الدرس الثامن عشر: سورة الشمس**
- 213 شرح المفردات
- 213 محتوى السورة وفضيلتها
- 214 في كنف السورة

219	الدرس التاسع عشر: سورة الليل
221	شرح المفردات
221	سبب النزول
222	محتوى السورة وفضيلتها
222	في كنف السورة
227	الدرس العشرون: مفاهيم قرآنية
229	المفهوم الأول: الخشوع في الصلاة
233	المفهوم الثاني: قصة طالوت والقائد الصالح

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين

وبعد .

القرآن الكريم أساس الدين وباب الإسلام، وهو كتاب الله الذي أودع فيه شريعته وحقائق دينه، أنزله للناس هادياً وسراجاً منيراً ليُخرجهم من الظلمات إلى النور. وأمرهم بالتمسك به لأنه كلمة الله التامة وإرادته الكاملة للبشرية في كل زمان ومكان؛ ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾⁽¹⁾، فمن أراد الوصول إلى الله ما عليه إلا أن يسلك سبيله ويهتدي بهداه، ومن اهتدى إنما يهتدي به ومن ضلّ فهو الذي يزيغ عنه.

لذا كان عهد رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام إلينا بأن نحفظه ونراعي حدوده فلا نُضيّعها أبداً، لأنه نعمة الله الكبرى التي من تمسك بها فاز ومن تخلف عنها خسر. فقد سئل إمامنا الرضا عليه السلام: «ما تقول في القرآن؟ فقال عليه السلام: «كلام الله لا تتجاوزوه ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلّوا»⁽²⁾ وعن الرسول الأكرم ﷺ: «إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان»⁽³⁾.

(1) سورة الأنعام، الآية 155.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 117، تحقيق السيد إبراهيم الميانجي - محمد باقر البهبودي، نشر مؤسسة الوفاء - لبنان، ط 2، 1983، باب أن القرآن مخلوق، ح 2.

(3) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل ج 4، ص 232، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم، باب النوادر، ح 4.

وهو الكمال الحقيقي والغنى الذي لا غنى بعده. عن رسول الله ﷺ: «القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده»⁽¹⁾. فمن أعطي القرآن فقد أعطي الخير المطلق والكمال الذي لا حد له وأفضل ما في الوجود، لأنه لا غنى ولا كمال فوقه على الإطلاق، ففيه علم الأولين والآخريين، ومن تحقق به كان من حملة القرآن وأولياء الحق المقربين. فعن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «لا ينبغي لحامل القرآن أن يظن أن أحداً أُعطي أفضل مما أُعطي لأنه لو ملك الدنيا بأسرها لكان القرآن أفضل مما ملكه»⁽²⁾.

وهو مآدبة الله تعالى إلى خلقه، التي زينها بأنواع لا تعد ولا تحصى من الأطعمة العملية والمعنوية التي هي غذاء الروح وكمالها الحقيقي، ووضع على هذه المآدبة كل ما يحتاجه الإنسان وما ينفعه. ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾⁽³⁾. وعن رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن مآدبة الله فتعلموا مآدبته ما استطعتم»⁽⁴⁾.

وفيه خزائن العلم الإلهي، التي من استفاض منها كان من عرفاء أهل الجنة. فعن رسول الله ﷺ: «حملة القرآن عرفاء أهل الجنة»⁽⁵⁾. وعن الإمام زين العابدين ع: «آيات القرآن خزائن العلم فكلما فتحت خزانة فينبغي لك أن تنظر ما فيها»⁽⁶⁾.

هذا الكتاب دروس تمهيدية في معرفة القرآن الكريم يتضمن سلسلة من الدروس القرآنية التي تهدف إلى التعرف على مجموعة من المعارف الأساس التي يجب أن يتعرف عليها الإنسان المسلم، وتُشكل جزءاً من ثقافته القرآنية، راجين من المولى عز وجل أن يوفقنا لخدمة كتابه والعمل به.

والحمد لله رب العالمين

مركز مؤلفي القرآن الكريم والعلوم الشرعية

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص168، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت ع، لإحياء التراث - قم، مطبعة مهر - قم،

ط 2، 1414هـ، أبواب قراءة القرآن ولو في غير الصلاة، ح 11.

(2) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج 4، ص 237.

(3) سورة الزمر، الآية 27.

(4) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج 4، ص 232.

(5) م. ن. ص 243.

(6) م. ن. ص 238.

المحور الأول

فضل قراءة القرآن
وأداب تلاوته ومقاصده

الدرس الأول

فضل تعلّم القرآن وتلاوته

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يفهم فضل تعلّم القرآن وتعليمه.
- 2 . يعرف ثواب قراءة القرآن وأثارها.
- 3 . يشرح كيفية القراءة المعتبرة الواردة في الروايات.

مقدّمة

لقد حدّد الله تعالى ورسول الله ﷺ والأئمة السالفة سبيل الاستفادة من القرآن الكريم، بالتدبّر والتعلّم والحفظ، والعمل بآياته، وتربية الأمة على ضوئها، وذلك باعتبار أنّ القرآن كتاب هداية، ورسالة للعالمين حتى قيام الساعة.

الحثّ على تعلیم القرآن وتعلّمه

1. تعلّموا من مأدبة الله تعالى:

لقد ورد الحثّ المباشر من النبي ﷺ على تعلّم القرآن وتعلّمه، وأنّه مأدبة الله. روي عن رسول الله ﷺ: «القرآن مأدبة الله فتعلّموا من مأدبة الله ما استطعتم، إنّهُ النور المبين، والشفاء النافع، تعلّموه فإنّ الله يُشرفكم بتعلّمه»⁽¹⁾.

واعتبر أنّ تعلّم القرآن حقّ وواجب - ليس بالوجوب الشرعي المصطلح -، روي عن رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن ذكرأ أو أنثى، حرّاً أو مملوكاً، إلاّ ولله عليه حقّ واجب أن يتعلّم من القرآن»⁽²⁾.

2. ثواب تعلیم القرآن وتعلّمه:

ومن الخصائص التي يمتاز بها القرآن الكريم، أنّ الأجر والثواب الأخروي والدينيوي يشمل كلّاً من العالم والمتعلّم، روي عن رسول الله ﷺ: «مَنْ عَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ لَهُ أَجْرُهَا مَا تُلِيَتْ»⁽³⁾.

(1) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج 1، ص 287.

(2) م.ن، ص 287.

(3) م.ن، ص 288.

وعنه عليه السلام: «من تعلم القرآن وتواضع في العلم وعلم عباد الله وهو يريد ما عند الله لم يكن في الجنة أعظم ثواباً منه، ولا أعظم منزلة منه، ولم يكن في الجنة منزلة ولا درجة رفيعة ولا نفيضة إلا وكان له فيها أوفر النصيب، وأشرف المنازل»⁽¹⁾.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «معلم القرآن يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر»⁽²⁾.

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «تعلموا القرآن فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع (أحسن) القصص فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم والحسرة له ألزم، وهو عند الله أوم»⁽³⁾.

3. إكرام حملة القرآن:

حملة القرآن هم الجماعة الذين آمنوا بالقرآن ككتاب هداية ورسالة للبشرية جمعاء، وتدبروا كتاب الله وحفظوه بالقلب والعمل، ويسعون جادين لبناء قواعد الحياة والمجتمع وفق ما جاء في آياته، روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أهل القرآن في أعلى درجة من الآدميين ما خلا النبيين والمرسلين، فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم، فإن لهم من الله العزيز الجبار مكاناً علياً»⁽⁴⁾.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا ذر من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم. وإكرام حملة القرآن العاملين به. وإكرام السلطان المقسط»⁽⁵⁾.

4. العمل بالقرآن وتطبيقه:

لا قيمة للعلاقة بكتاب الله على مستوى القراءة والتدبر والحفظ وغيرها، دون العمل والالتزام بتعاليم الله تعالى وتشريعاته التي نزلت وحياً على نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم روي

(1) الشيخ الصدوق، عقاب الأعمال، ص51، تحقيق السيد محمد مهدي السيد حسن الخرخسان، منشورات الشريف الرضي - قم، ط 2، 1368ش، عقاب مجمع عقوبات الأعمال.

(2) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج1، ص288.

(3) الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الخطبة رقم 110.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص441، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، نشر دار الكتب الإسلامية - طهران، مطبعة حيدري، ط 4، 1365ش، باب فضل حامل القرآن، ح 1.

(5) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج1، ص290.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ وَآثَرَ عَلَيْهِ حَبَّ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا اسْتَوْجِبَ سَخَطَ اللَّهِ، وَكَانَ فِي الدَّرَجَةِ مَعَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ يَنْبِذُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ. وَمَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ حَشَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا؟ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى، فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ»⁽¹⁾.

روي عن رسول الله ﷺ أيضاً: «مَنْ قَالَ بِهِ (أَيَّ بِالْقُرْآنِ) صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجْرٌ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِهِ هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، هُوَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ»⁽²⁾.

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «أَيْنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَهَيَّجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلَّهُوا اللَّهَ وَلَهُ اللَّقَاحُ إِلَى أَوْلَادِهِ؟»⁽³⁾.
وعن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: «قَرَأْتُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ رَجُلٍ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاتَّخَذَهُ بِضَاعَةً وَاسْتَدْرَجَ بِهِ الْمُلُوكَ، وَاسْتَطَالَ بِهِ عَلَى النَّاسِ. وَرَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَحَفِظَ حُرُوفَهُ وَضَيَّعَ حَدُودَهُ، وَأَقَامَهُ إِقَامَةَ الْقَدْحِ فَلَا كَثْرَ اللَّهُ هَوْلَاءَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ. وَرَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَوَضَعَ دَوَاءَ الْقُرْآنِ عَلَى دَاءِ قَلْبِهِ، وَأَسْهَرَ بِهِ لَيْلَهُ، وَأَظْمَأَ بِهِ نَهَارَهُ، وَقَامَ بِهِ فِي مَسَاجِدِهِ، وَتَجَافَى بِهِ عَنِ فِرَاشِهِ، فَبَأْوَلْتُكَ يَدْفَعُ اللَّهُ الْبَلَاءَ وَبَأْوَلْتُكَ يُنْزِلُ اللَّهُ الْغَيْثَ مِنَ السَّمَاءِ. فَوَاللَّهِ لَهَوْلَاءَ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ أَعَزَّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الْأَحْمَرِ»⁽⁴⁾.

وعن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ يَعْلَمُ السُّورَةَ ثُمَّ نَسِيَهَا أَوْ تَرَكَهَا وَدَخَلَ الْجَنَّةَ أَشْرَفَتْ عَلَيْهِ مِنْ فَوْقٍ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَتَقُولُ: تَعْرِفْنِي؟ فَيَقُولُ: لَا. فَتَقُولُ: أَنَا سُورَةٌ كَذَا وَكَذَا لَمْ تَعْمَلْ بِي، وَتَرَكَتَنِي، وَاللَّهِ لَوْ عَمِلْتَ بِي لَبَلَّغْتَ بِكَ هَذِهِ الدَّرَجَةَ، وَأَشَارَتْ بِيَدَيْهَا إِلَى مَا فَوْقَهَا»⁽⁵⁾.

(1) الشيخ الصدوق، عقاب الأعمال ص 52.

(2) محمد بن سعود، تفسير العياشي، ص 3، ج، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، نشر المكتبة العلمية الإسلامية - طهران.

(3) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة رقم 121.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 459.

(5) م، ن، ص 445.

فضل قراءة القرآن وتجويده وترتيبه

لقد كثرت الأخبار التي تحث على قراءة القرآن وترتيبه، ووعدت أصحابها بالثواب الجزيل، وورد فيها الإشارة إلى العديد من الآثار الدنيوية والأخروية التي يستحقها قارئ القرآن.

وهذا ما يتطلب التوقف مع هذه الروايات، بالدراسة والتحليل والتدقيق في معانيها ودلائلها تمهيداً للاستفادة منها في حياتنا العملية.

1. آثار القراءة وقيمتها:

اعتبر النبي ﷺ قراءة القرآن أفضل العبادة فروي عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأَ عشرَ آياتٍ في ليلةٍ لم يكتب من الغافلين. ومَنْ قرأَ خمسين آيةً كتب من الذاكرين. ومَنْ قرأَ مائة آيةً كتب من القانتين. ومَنْ قرأَ مائتي آيةً كتب من الخاشعين. ومَنْ قرأَ ثلاثمائة آيةً كتب من الفائزين. ومَنْ قرأَ خمسمائة آيةً كتب من المجتهدين. ومَنْ قرأَ ألفَ آيةٍ كتب له قنطار - من تبر - والقنطار خمسون ألف مثقال ذهب، والمثقال أربعة وعشرين قيراطاً، أصغرها مثل جبل أحد، أكبرها ما بين السماء والأرض»⁽¹⁾.

واعتبر ﷺ قراءة القرآن من أفضل العبادة، فورد عن رسول الله ﷺ: «أفضل العبادة قراءة القرآن»⁽²⁾.

وعنه ﷺ: «من قرأ القرآن فظن أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي فقد حقر ما عظم الله وعظم ما حقر الله»⁽³⁾.

ولقارئ القرآن ثواب الشاكرين، كما ورد عن رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: من شغل بقراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين»⁽⁴⁾.

وإذا نظرنا إلى بعض الآثار الأخروية نجد أن قراءة القرآن كفارة للذنوب، وستر من النار... فروي عن رسول الله ﷺ: «يا سلمان عليك بقراءة القرآن فإن قراءته كفارة للذنوب.

(1) الكليني، الكافي، ج 2، ص 448.

(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 6، ص 168.

(3) م.ن، ج 6، ص 170.

(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 92، ص 200.

وسترٌ من النار. وأمانٌ من العذاب. ويكتب لمن يقرأ بكل آية ثواب مائة شهيد. ويعطى بكل سورة ثواب نبي مرسل. وتنزل على صاحبه الرحمة. وتستغفر له الملائكة. واشتاق إلى الجنة. ورضي عنه المولى. وإن المؤمن إذا قرأ القرآن نظر الله إليه بالرحمة، وأعطاه بكل حرف نوراً على الصراط...»⁽¹⁾.

وقراءة القرآن أفضل من الذكر:

روي عن رسول الله ﷺ: «قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة، وقراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من ذكر الله»⁽²⁾.

2. كيفية القراءة:

أ. القراءة والنظر في المصحف:

روي عن رسول الله ﷺ: «ليس شيء أشد على الشيطان من القراءة في المصحف نظراً»⁽³⁾.

وعن الإمام الصادق، جعفر بن محمد عليه السلام: «من قرأ القرآن في المصحف متع ببصره، وخُف عن والديه وإن كانا كافرين»⁽⁴⁾.

ب. القراءة تلاوة:

عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، في وصية لولده محمد بن الحنفية: «عليك بتلاوة القرآن في ليلك ونهارك، ولزوم فرائضه وشرائعه، وحلاله وحرامه، وأمره ونهيه، والتهجّد به، والتلاوة في ليلك ونهارك، فإنه عهد من الله تعالى إلى خلقه فهو واجب على كل مسلم أن ينظر كل يوم في عهده»⁽⁵⁾.

(1) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج 1، ص 292.

(2) م.ن، ج 1، ص 292.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 92، ص 202.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 449.

(5) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج 1، ص 293.

ج. كم يجب أن نقرأ؟

روي عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: «من قرأ مائة آية يُصلي بها في ليلة، كتب الله عز وجل له بها قنوت ليلة. ومن قرأ مائتي آية في غير صلاة كتب الله له في اللوح قنطاراً من الحسنات. والقنطار ألف ومائتا أوقية والأوقية أعظم من جبل أحد»⁽¹⁾.
وعنه عليه السلام: «يُدعى بابن آدم المؤمن للحساب فيتقدم القرآن أمامه في أحسن صورة فيقول: يا رب أنا القرآن وهذا عبدك المؤمن قد كان يُتعب نفسه بتلاوتي، ويُطيل ليله بترتيلي، وتفيض عيناه إذا تهجد، فارضه عني كما أرضاني. فيقول العزيز الجبار، عبدي ابسط يمينك، فيملأها من رضوان الله، ويملاً شماله من رحمة الله، ثم يُقال له: هذه الجنة مباحة، فاقرأ واصعد، فإذا قرأ آيةً صعد درجة»⁽²⁾.
وعنه أيضاً عليه السلام: «كان علي بن الحسين. صلوات الله عليه. أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان السقاؤون يمرُّون فيقبضون ببابه يسمعون قراءته، وكان أبو جعفر الباقر عليه السلام أحسن الناس صوتاً - أي في قراءة القرآن»⁽³⁾.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص445.

(2) م.ن، ص449.

(3) م.ن، ج2، ص451.

المفاهيم الرئيسية

- دلت جملة من الأخبار على فضل القراءة في المصحف على القراءة عن ظهر القلب. كما أرشدتنا الأحاديث الشريفة إلى فضل القراءة في البيوت وتعاهد كتاب الله بالتلاوة الدائمة.
- إن لقراءة القرآن العديد من الآثار المباركة على روحية وشخصية ومُنْقَلَبِ الإنسان المؤمن.
- اعتبرت الروايات والأحاديث أن قراءة القرآن الكريم من أفضل العبادات التي يُمكن للإنسان أن يؤديها بشرط أن تقترن مع العمل والتطبيق.
- القراءة إذا كانت مقرونة بالعمل والتطبيق الجيد والفعال، فإنها تكون سبباً لتكفير الذنوب.
- التلاوة بصوتٍ حسنٍ من الأمور التي تدلُّ على اهتمام الإنسان بالقرآن الكريم.

للمطالعة

ما تكلمت إلا بالقرآن

قال بعضهم: انقطعت في البداية عن القافلة فوجدت امرأة، فقلت لها: من أنت؟ فقالت: ﴿وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (1)، فسلمت عليها، فقلت: ما تصنعين ههنا؟ قالت: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ (2)، فقلت: أمن الجن أنت أم من الإنس؟ قالت: ﴿بَنِيَّ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ (3)، فقلت: من أين أقبلت؟ قالت: ﴿يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (4)، فقلت: أين تقصدين؟ قالت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ (5)، فقلت: متى انقطعت؟ قالت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (6)، فقلت: أشتهي طعاماً؟ قالت: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَآ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ (7)، فأطعمتها، ثم قلت هرولي ولا تعجلي، قالت: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (8)، فقلت: أردفك؟ فقالت: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (9)، فنزلت فأركبتها، فقالت: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا﴾ (10)، فلما أدركننا القافلة قلت: ألك أحد فيها؟ قالت: ﴿يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ (11) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ (12) ﴿يٰحٰجِي خُذِ الْكِتٰبَ﴾ (13) ﴿يٰمُوسَىٰ﴾ (14) ﴿إِنِّي أَنَارُكُ﴾ (14)، فصحت بهذه الأسماء، فإذا أنا بأربعة شباب متوجهين نحوها، فقلت:

(1) سورة الزخرف، الآية 89.

(2) سورة الزمر، الآية 37.

(3) سورة الأعراف، الآية 31.

(4) سورة فصلت، الآية 44.

(5) سورة آل عمران، الآية 97.

(6) سورة ق، الآية 38.

(7) سورة الأنبياء، الآية 8.

(8) سورة البقرة، الآية 286.

(9) سورة الأنبياء، الآية 22.

(10) سورة الزخرف، الآية 13.

(11) سورة ص، الآية 26.

(12) سورة آل عمران، الآية 144.

(13) سورة مريم، الآية 12.

(14) سورة طه، الآيتان 11 و 12.

من هؤلاء منك؟ قالت: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الدُّنْيَا﴾⁽¹⁾، فلما أتوها قالت: ﴿يَتَأْتِ اسْتَعْجِرُهُ إِتْ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَعْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾⁽²⁾. فكافوني بأشياء فقالت: ﴿وَاللَّهِ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾⁽³⁾. فزادوا عليّ، فسألتهم عنها. فقالوا: هذه أمنا فضة جارية الزهراء عليها السلام ما تكلمت منذ عشرين سنة إلا بالقرآن⁽⁴⁾.

(1) سورة الكهف، الآية 46.

(2) سورة القصص، الآية 26.

(3) سورة البقرة، الآية 261.

(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 43، ص 86 - 87.

الدرس الثاني

أحكام القرآن والآداب الظاهريّة لتلاوته

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يتعرّف إلى أجر قارئ القرآن وثوابه.
- 2 . يدرك أهميّة المواظبة على قراءة القرآن الكريم.
- 3 . يُعدّد الآداب الظاهريّة لتلاوة القرآن.

مقدمة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (1).

لا غنى للمسلم عن مصاحبة القرآن وتلاوته، حيث يعيش الإنسان فيه مع الله تعالى ويقتبس من نوره. والتلاوة عبادة يُتاب عليها المؤمن ويؤجر على كل حرف يقرأه. ولكن كيف نقرأ القرآن، وكيف نستفيد من آياته؟ هل نقرأه لمجرد التلاوة؟ أم نقرأه لنجعله نوراً لنا في ظلمات الجهل والدنيا يُسدّد وجهتنا ويحسن مسلكنا؟ ألم يقرع أسماعنا قول رسول الله ﷺ: «كم من تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه لأنه أقام حروفه وضيع حدوده؟» (2).

والأجر يتفاوت على قدر ما في التلاوة من تدبّر، وعلى قدر ما يؤدي التدبّر إلى الغاية المطلوبة والهدف المراد الذي يشير إليه تعالى في قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (3).

فالمطلوب أن تتحوّل تلاوة القرآن والاستماع لآياته إلى تأثر وخشوع وخضوع لحضرة الباري سبحانه وتعالى يتجلّى في مقام العمل هدياً وسلوكاً والتزاماً بأوامر الله عزّ وجلّ ونواهيه.

وقد تعرّفنا في الدرس السابق على فضل القرآن وفضل تلاوته، وفي هذا الدرس نتعرّف على الآداب الظاهرية لتلاوة القرآن؟ وما هي شروطها؟ وكيف نحصل الغاية القصوى من

منافعها؟

(1) سورة فاطر، الآية 29.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 184.

(3) سورة الزمر، الآية 23.

القرآن نور

ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ: «نوروا بيوتكم بتلاوة القرآن⁽¹⁾». ولا شك أن ثواب التلاوة ليس لمن يقرأ القرآن ويمرّ عليه مروراً دون أن يتأثر به قلباً وقالباً، فإذا عرض عليه عارض من الدنيا نسي القرآن وصاحب القرآن، نعوذ بالله من ذلك، بل الأجر لمن قرأ وتدبر بتأدب وتأمل وعلم أن الذي يخاطبه هو الله سبحانه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. من هنا كان حقيقاً علينا أن نلتفت ونهتّم ببعض الآداب التي ينبغي أن تقترن بتلاوتنا للقرآن، ونرجو من خلالها أن يكون تعبنا هذا موضعاً للقبول من حضرة الباري سبحانه وتعالى.

الآداب الظاهرية لتلاوة القرآن

لقد ذكرت آداب متعدّدة لتلاوة القرآن، منها ما هو ظاهري، ومنها ما هو باطني، وفي هذا الدرس سنتعرّف على الآداب الظاهرية، وهي كثيرة، أهمها:

1. الطهارة:

والمقصود بالطهارة الخلو من الحدث الأكبر والأصغر بالوضوء أو الغسل أو التيمّم بدلاً عنهما. وقد جعل المولى ثواب قراءة القرآن ثواباً مضاعفاً، ففي الحديث: «من استمع القرآن كتب له بكل حرف حسنة ومن قرأ على وضوء كان له بكل حرف خمس وعشرون حسنة»⁽²⁾.

وقد صرّح الفقهاء بکراهة قراءة ما زاد على سبع آيات للجنب، مضافاً إلى حرمة قراءته آيات السجدة من سور العزائم الأربع: «العلق» و«النجم» و«فصلت» و«السجدة».

2. تنظيف الفم:

عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إني لأحب للرجل إذا قام بالليل أن يستاك وأن يشم الطيب فإن الملك يأتي الرجل إذا قام بالليل حتى يضع فاه على فيه، فما خرج

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 610.

(2) الحر العاملي، محمد بن الحسن، الفصول المهمة في أصول الأئمة، ج 3، ص 320، تحقيق القائيني، الطبعة الأولى، 1418 -

1376 ش، قم، مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا عليه السلام.

من القرآن من شيء دخل جوف ذلك الملك»⁽¹⁾.

فالفم هو طريق القرآن، ولا يليق بطريق القرآن إلا أن يكون طيباً نظيفاً؛ عن رسول الله ﷺ «نظفوا طريق القرآن» قيل: يا رسول الله ﷺ وما طريق القرآن؟ قال: «أفواهكم» قيل: بماذا؟ قال: «بالسواك»⁽²⁾.

وفي حديث آخر: «طهروا أفواهكم بالسواك فإنها طرق القرآن»⁽³⁾.

3. الإقبال والتهيؤ التام على التلاوة:

ينبغي لقارئ القرآن أن يستقبل القبلة، ويجلس بتأدب وخشوع، ويقبل على التلاوة متفرغاً لها، وقد جاء عن الإمام الصادق ع: «قارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء: قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خالٍ. فإذا خشع لله قلبه فر منه الشيطان الرجيم»⁽⁴⁾.

4. البدء بالاستعاذة:

قال تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾⁽⁵⁾.

من كمال الأدب أن يشرع القارئ في القراءة بالاستعاذة، ويقصد بها تطهير القلب من تلوثات الوسوسة الصارفة عن ذكر الله تعالى.

وختم القراءة بقوله: صدق الله العلي العظيم ويدعو بالمأثور في بدء التلاوة وبعد الفراغ منها كما كان يفعل الأئمة ع.

5. قراءة القرآن في المصحف:

وفي بعض الروايات ما يفيد أفضلية قراءة القرآن مطالعة على قراءته حفظاً. وتظهر هذه الأفضلية في الآثار المترتبة، وقد ذكرنا في الدرس السابق بعضاً منها ونضيف ما ورد عن الرسول الأعظم ﷺ: «أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن نظراً»⁽⁶⁾.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 77، ص 343.

(2) م.ن، ج 73، ص 131.

(3) مستدرک الوسائل، ج 1، ص 368.

(4) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج 4، ص 241.

(5) سورة النحل، الآية 98.

(6) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 73، ص 320.

6. الترتيل بصوت حسن:

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾⁽¹⁾.

والترتيل هو بيان الحروف وإظهارها وحفظ الوقوف.

والمراد بحفظ الوقوف أن لا يقف القارئ كيفما كان، بل يقف حيث يكون الوقف حسناً. والمراد ببيان الحروف أن يُخرج الحروف كما ينبغي من جهر وهمس وإطباق واستعلاء على ما ذكره علماء التجويد.

والترتيل كما في بيان الإمام الصادق عليه السلام هو: «أن تتمكث فيه وتحسن به صوتك»⁽²⁾. فتقرأ بإمعان من غير استعجال بحيث لو أراد السامع أن يعد الحروف لأوشك أن يعدّها. وتحسن به الصوت في خشوع وخشية.

وقال عليه السلام أيضاً: «زينوا القرآن بأصواتكم»⁽³⁾.

والمقصود من حسن الصوت ما روي عن رسول الله ﷺ: «إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله»⁽⁴⁾.

ويستفاد من الروايات أن الصوت الحسن يترك أثراً في قلب القارئ والمستمع على حد سواء، الأمر الذي يساهم في تليين القلوب القاسية، فإن كلام الله شفاء من كل مرض قلبي.

7. مكان القراءة:

بالإضافة لخصوصية الأماكن المقدّسة والمساجد، ينبغي للمسلم أن يقرأ القرآن في بيته لما في ذلك من أثر هام؛ عن الإمام علي عليه السلام: «البيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض وإن البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله فيه تقلّ بركته وتهجره الملائكة

(1) سورة المزمل، الآية 4.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 191.

(3) م. ن، ج 89، ص 190.

(4) المنذري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، ج 2، ص 364، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1408هـ - 1988م، بيروت، لبنان..

وتحضره الشياطين»⁽¹⁾.

8. مقدار القراءة:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «القرآن عهد الله إلى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده وأن يقرأ منه في كل يوم خمسين آية»⁽²⁾. وقد ورد التأكيد على التروي في القراءة: جاء عن الإمام الصادق لما سُئِلَ عن ختم القرآن كل يوم فقال عليه السلام: «لا يُعجبني أن تقرأه في أقل من شهر»⁽³⁾.

9. الحزن والخشوع:

من آداب قراءة القرآن وتلاوته أن يستشعر المرء حالة الحزن والخشوع. عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «إن القرآن نزل بالحزن، فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»⁽⁴⁾.

أحكام القرآن الشرعية

- 1- يحرم على المحدث بالحدث الأصغر والأكبر مسّ كتابة القرآن، ولا فرق بين آياته وكلماته، بل والحروف والمدّ والتشديد وأعاريبها.
- 2- لا فرق في حرمة المسّ بين أجزاء البدن ظاهراً وباطناً، نعم لا يبعد جواز المسّ بالشعر.
- 3- يحرم على المجنب قراءة آيات السجدة من سور العزائم الأربع - وهي اقرأ والنجم وألم تنزيل وحم السجدة - ولو بعض منها حتى البسمة بقصد إحداها⁽⁵⁾.
- 4- يكره للمجنب قراءة ما زاد على سبع آيات غير العزائم. وتشتدُّ الكراهة إن زاد على سبعين آية، وكذلك مسّ ما عدا خطّ المصحف من الجلد والورق والهامش وما بين السطور، وكذا حمل المصحف وتعليقه.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص610.

(2) الكافي، ج2، ص609.

(3) م، ن، ص617.

(4) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج4، ص271.

(5) الإمام الخامنئي رحمته الله: الحرام هو قراءة نفس الآية دون بقية السورة.

- 5- يجب السجود عند تلاوة آيات أربع في السُّور الأربع: آخر النجم والعلق، و﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في سورة السجدة و﴿تَعْبُدُونَ﴾ في سورة فصلت، وكذا عند استماعها دون سماعها على الأظهر، ولكن لا ينبغي ترك الاحتياط (عند السماع). والسبب (الموجب للسجود) مجموع الآية، فلا يجب بقراءة بعضها ولو لفظ السجدة منها وإن كان أحوط، ووجوبها فوري لا يجوز تأخيرها، ولو أخرها ولو عسياناً يجب إتيانها ولا تسقط⁽¹⁾.
- 6- يعتبر في هذا السجود بعد تحقق مسماه النية وإباحة المكان والأحوط وضع المواضع السبعة. ووضع الجبهة على ما يصح السجود عليه، وإن كان الأقوى عدم اللزوم، نعم الأحوط ترك السجود على المأكول والملبوس، بل عدم الجواز لا يخلو من وجه⁽²⁾، ولا يُعتبر فيه الاستقبال، ولا الطهارة من الحدث والخبث، ولا طهارة موضع الجبهة، ولا ستر العورة.
- 7- ليس في هذا السجود تشهد ولا تسليم ولا تكبيرة افتتاح نعم يستحب التكبير للرفع عنه، ولا يجب فيه الذكر، بل يُستحب ويكفي مطلقه، والأولى أن يقول: «لا إله إلا الله حقاً حقاً، لا إله إلا الله إيماناً وتصديقاً، لا إله إلا الله عبودية ورقاً، سجدتُ لك يا ربَّ تعبدًا ورقاً، لا مستنكفاً ولا مستكبراً بل أنا عبد ذليل خائف مستجير».
- 8- يحرم تنجيس المصحف الكريم حتى جلده وغلافه ويجب إزالة النجاسة عنه. ووجوب تطهيره كفاً لا يختص بمن نجسه، كما أنه يجب المبادرة مع القدرة على تطهيره، ولو توقّف ذلك على صرف مال وجب.
- 9- كما يحرم تنجيس المصحف، يحرم كتابته بالمداد النجس، ولو كتب جهلاً أو عمداً يجب محوه فيما ينمحي، وفي غيره كمداد الطبع يجب تطهيره.
- 10- الكافر لا يصحّ منه تملك المصحف، فلا يصحُّ بيعه له ولا هبته ولا الوصية له بالقرآن بل وإعارته له، وكذا سائر أنواع التصرفات الناقلة للقرآن إلى ملك الكافر⁽³⁾.

(1) الإمام الخامنئي رحمته الله: إذا استمع إلى آية السجدة من الراديو أو التلفاز أو المسجّل وأمثال ذلك يجب عليه السجود.

(2) الإمام الخامنئي رحمته الله: يجب في سجود التلاوة وضع المساجد السبعة على الأرض ووضع الجبهة على ما يصح السجود عليه أيضاً.

(3) الإمام الخامنئي رحمته الله: إذا كان تمكين الكافرين من المصحف لغرض الهداية، فلا إشكال مع الأمن من هتكه وتنجيسه.

المفاهيم الرئيسية

- لا غنى للمسلم عن مصاحبة القرآن وتلاوته، حيث يعيش الإنسان فيه مع الله تعالى ويقتبس من نوره.
- التلاوة عبادة يُثاب عليها المؤمن ويؤجر على كلِّ حرف يقرأه.
- للقراءة القرآنية آداب لا بدّ أن نلتزم بها حتّى نحصل أقصى درجات الأجر من الباري سبحانه وتعالى.
- لقد ذُكرت آداب متعدّدة لتلاوة القرآن منها ما هو ظاهريٌّ ومنها ما هو باطنيٌّ.
- الآداب الظاهرية كثيرة، على رأسها: الطهارة، تنظيف الفم، استقبال القبلة والإقبال التام على التلاوة، البدء بالاستعاذة، قراءة القرآن في المصحف، الترتيل بصوت حسن.

للمطالعة

آثار التمسك بالقرآن

القرآن الكريم كلام الله وللتمسك بكلامه آثار طيبة ومنتوعة منها:

1. الهداية من الضلالة: القرآن الكريم مظهر هداية الله، وسرّ النجاة من الضلالة: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (1). وعن رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» (2).
2. الارتقاء في مراتب الآخرة: كلُّ آية من آيات القرآن الكريم تُمثلُ درجةً من درجات الجنّة، وكلّما تحقّق الإنسانُ بآية من آيات الكتاب الإلهي، كلّما ارتقى في مراتب الجنّة. فعن رسول الله ﷺ: «عددُ درج الجنّة عددُ آيات القرآن، فإذا دخل صاحب القرآن الجنّة قيل له؛ اقرأ وارق لكلِّ آية درجة فلا تكون فوق حافظ القرآن درجة» (3).
3. الشفاء: القرآن هو الشافي الحقيقي لأمراض النفوس المزيل لأمراض القلوب، وهو إكسير السعادة في الدارين. فمن أراد أن يطهر باطنه من الأمراض والرزائل الأخلاقية والذنوب الممحنة ما عليه سوى التمسك بهذا النور الإلهي. قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (4). وعن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: «واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على

(1) سورة الإسراء، الآية 9.

(2) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 27، ص 33.

(3) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج 4، ص 231.

(4) سورة الإسراء، الآية 82.

لأوائكم فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغِي والضلّال»⁽¹⁾.
وعنه عليه السلام أيضاً: «وتعلّموا القرآن فإنه ربيع القلوب واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور»⁽²⁾.

4. النجاة من العذاب: لأنّ الله تعالى لا يُعذب من تلبّس برداء القرآن ظاهراً وباطناً، لأنّه صار مظهراً للقرآن خَلْقاً وَخُلُقاً، ولأنّ القرآن هو الجنّة نفسها. فعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «اقرأوا القرآن واستظهِروه فإن الله تعالى لا يُعذب قلباً وعى القرآن»⁽³⁾.

(1) الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام نهج البلاغة، ج 2، ص 91.

(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 6، ص 167.

(3) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج 4، ص 245.

الدرس الثالث

الآداب الباطنية لتلاوة القرآن

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يتعرّف على الآداب الباطنية لتلاوة القرآن.
- 2 . يعرف أوجه عظمة القرآن.
- 3 . يفهم أهميّة تطبيق مفاهيم القرآن.

مقدّمة

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾⁽¹⁾.

فللقرآن حقّ علينا وينبغي أن نوفيّه حقّه برعاية جملة من الآداب أثناء تلاوته والاستماع إليه، وفي تفسير الآية عن الإمام الصادق عليه السلام: «يُرتلون آياته ويتفهمون معانيه ويعملون بأحكامه ويرجون وعده ويخشون عذابه ويتمثلون قصصه ويعتبرون أمثاله ويأتون أوامره ويجتنبون نواهيه...»⁽²⁾.

وأفضل التلاوة تلك التي تُحقّق الهدف القرآنيّ الأوّل وهو الهداية، يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾⁽³⁾. ولحصول الهداية هناك آداب باطنية ومعنوية ينبغي مراعاتها، أهمّها:

1. الإخلاص في القراءة:

من الآداب المفيدة في تلاوة القرآن الكريم الإخلاص وقد وردت بذلك روايات كثيرة. منها ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «قرأء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذَه بضاعة واستدرّ به الملوک واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضیع حدوده وأقامه إقامة القدح، فلا كثر الله هؤلاء من حملة القرآن. ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجاوى به عن فراشه فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء، وبأولئك يُدیل الله من

(1) سورة البقرة، الآية 121.

(2) ورام بن أبي فراس المالكي الأشتري، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام)، ج 2، ص 555. طبع مؤسسة دار الكتب الإسلامية، طهران، مطبعة حيدري.

(3) سورة البقرة، الآية 2.

الأعداء، وبأولئك يُنزل الله الغيث من السماء، فوالله لهؤلاء في قرآن أعز من الكبريت الأحمر»⁽¹⁾.

2. التعظيم:

من الآداب المهمة لقراءة الكتاب الإلهي والتي يشترك فيه العالم والعامي، وتحصل منه النتائج الحسنة ويوجب نورانية القلب وحياة الباطن: التعظيم. وهو موقوف على فهم عظمة القرآن وجلاله وكبريائه. وهذا المعنى وإن كان بحسب الحقيقة خارجاً عن نطاق البيان وفوق طاقة البشر، لأن فهم عظمة كل شيء بفهم حقيقته، وحقيقة القرآن لا تحصل لأحد إلا الخالص من أولياء الله الذين اشتركوا في روحانية رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار وفتوا فيهم من خلال التبعية التامة لهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إلا أن الإشارة الإجمالية إلى عظمة هذا الكتاب المنزل، هي في متناول جميع البشر وموجبة لفوائد كثيرة.

أوجه عظمة القرآن المختلفة:

إن عظمة كل كلام وكتاب، تُقاسُ إما بعظمة متكلمه وكتابه وإما بعظمة مطالبه ومقاصده، وإما بعظمة نتائجه وثمراته، وإما بعظمة الرسول والواسطة فيه، وإما بعظمة المرسل إليه وحامله، وإما بعظمة حافظه وحارسه، وإما بعظمة شارحه ومبينه، وإما بعظمة وقت إرساله وكيفيته. وبعض هذه الأمور دخيل في العظمة ذاتاً وجوهراً، وبعضها عرضاً وبالواسطة، وبعضها كاشف عن العظمة. وجميع هذه الأمور التي ذكرناها موجودة في هذه الصحيفة النورانية بالوجه الأعلى والأوفى، بل هي من مختصاتنا بحيث إن غيره من الكتب إما ألا يشترك معه في شيء منها أصلاً، أو لا يشترك معه في جميع المراتب.

1. أما عظمة متكلمه ومُنشئه وصاحبه: فهو الله سبحانه وتعالى، العظيم المطلق الذي جميع أنواع العظمة المتصورة، ما هي إلا رشفة من تجليات عظمته التي لا يمكن أن يتجلّى بها على أحد إلا من وراء آلاف الحجب والسرادات، كما في الحديث: «إن لله تبارك وتعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما دونه»⁽²⁾.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 604.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 55، ص 45.

2. وأما عظمة محتوياته ومقاصده ومطالبه: يستدعي الحديث عن ذلك عقد فصل على حدة، بل فصول وأبواب مستقلة وكتاب مستقل حتى تخرج نبذة منها إلى حيز البيان والتحرير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (1).
3. وأما عظمة رسول الوحي وواسطة الإيصال: فهو جبرائيل الأمين والروح الأعظم الذي يتصل به الرسول الأكرم ﷺ بعد خروجه عن الجلباب البشري. وهو الملك الموكل بالعلم والحكمة وصاحب الأرزاق المعنوية والأطعمة الروحانية. ونظرة إلى ما ورد في كتاب الله وفي الأحاديث الشريفة تكفي لإدراك مدى الإجلال والتعظيم الذي حُبي به جبرائيل وكيف أنه مقدم على سائر الملائكة.
4. وأما عظمة المرسل إليه وحامله: فهو القلب النقي النقي الأحمدي المحمدي الذي تجلّى له الحق تعالى بجميع شؤونه. وهو صاحب النبوة الخاتمة والولاية المطلقة. وهو أكرم البرية وأعظم الخليقة وخلاصة الكون وجوهرة الوجود وعصارة دار التحقق وصاحب الخلافة العظمى.
5. وأما حافظه وحارسه: فهو ذات الحق المقدّسة جلّ جلاله، كما قال في الآية الكريمة المباركة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (2).
6. وأما شارحه ومبيّته: فالذوات المطهّرة للمعصومين من رسول الله إلى حجة العصر ﷺ الذين هم مفاتيح الوجود ومخازن الكبرياء، ومعادن الحكمة والوحي وأصول المعارف.
7. وأما وقت الوحي: فهي ليلة القدر أعظم الليالي وخير الأشهر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (3) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ (4) ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (5).

(1) سورة الحجر، الآية 87.

(2) سورة الحجر، الآية 9.

(3) سورة القدر، الآيات 1 - 3.

3. التدبر في القرآن:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (1).
 فالقراءة التي لا تدبر فيها لا خير فيها. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ
 لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ
 قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنَسِئُوا﴾ (2).

وكان رسول الله ﷺ يقول: «إني لأعجب كيف لا أشيب إذا قرأت القرآن» (3).
 وجاء عن أمير المؤمنين ع أنه قال: «ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير
 في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه» (4).
 وعنه ع أنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل: جعلت فداك،
 تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ فقال ع: «إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي
 فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادِّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾» (5) (6).
 وعن الزهري قال سمعتُ علي بن الحسين ع يقول: «آيات القرآن خزائن العلم،
 فكلما فتحت خزائنه فينبغي لك أن تنظر فيها» (7).

4. التفكير:

من الآداب المهمة لقراءة القرآن التفكير. وقد كثرت الدعوة إلى التفكير في القرآن
 الشريف.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (8).
 وقال تعالى: ﴿فَأَقْصِبْ قَصَصَ الْقَصَصِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (9).

(1) سورة محمد، الآية 24.

(2) سورة الحديد، الآية 16.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 632.

(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 2، ص 49.

(5) سورة القصص، الآية 85.

(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 1، ص 26.

(7) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 92، ص 219.

(8) سورة النحل، الآية 44.

(9) سورة الأعراف، الآية 176.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

والروايات أيضاً في التفكر كثيرة، فقد نقل عن رسول الله ﷺ لما نزلت الآية الشريفة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (1)،

قال ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» (2).

5. التأثر والخشية:

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِؕ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٧٩﴾﴾ (3).

وهذه أحوال المستمع لتلاوة القرآن المتدبر فيه فكيف بمن يتلوه بنفسه؟

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (4).

6. البكاء والحزن:

فقد ورد عن النبي ﷺ: «من قرأ القرآن ولم يخضع لله ولم يرق قلبه ولا يكتسي حزناً ووجلاً في سره، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى، فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولا يتك، وكيف تجيب أوامره ونواهيه وكيف تمتثل حدوده؟» (5).

والقرآن كلام الحق ومن الأدب حين نقرأ هذا الكلام أن نُكبِّره ونُعظِّمه؛ فلا نستهيين بأوامره ونواهيه وإنذاره ووعيده وما يُنبئ عنه من حقائق وأسرار.

فإن عظمة الله تعالى وقدرته المطلقة تجلّت لعباده في القرآن الكريم، ومن كمال الأدب ونحن نقرأ القرآن أن نستحضر الحزن في قلوبنا والدمعة في عيوننا، والخوف والشفقة في نفوسنا كما هو حال النبي ﷺ حين كان يستمع إلى القرآن الكريم، فقد كانت عيناه تفيضان بالدمع.

(1) سورة آل عمران، الآية 190.

(2) المنذري، الترغيب والترهيب، ج 2، ص 373.

(3) سورة الإسراء، الآيات 107 – 109.

(4) سورة الحشر، الآية 21.

(5) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 82، ص 43.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المتقين: «يُحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامح قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم»⁽¹⁾.

7. التطبيق:

ومن الآداب المهمة لقراءة القرآن التي تُتيل الإنسان نتائج كثيرة واستفادة غير محدودة: التطبيق.

فمن أراد أن يأخذ من القرآن الشريف الحظّ الوافر فلا بدّ له أن يطبق كل آية شريفة على حالات نفسه حتى يستفيد استفادة كاملة، مثلاً يقول تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾**⁽²⁾.

فلا بدّ للسالك أن يلاحظ هذه الأوصاف الثلاثة منطبقة عليه، وهل قلبه يجلّ إذا ذكر الله ويخاف؟ وإذا تليت عليه الآيات الشريفة هل يزداد إيماناً في قلبه؟ وهل اعتماده وتوكله على الله تعالى أم أنه محروم من ذلك؟

فإذا كان محروماً فليسع لتحصيل هذه الصفات. وهكذا كل آية يمرّ عليها يطبقها خارجاً، فالقرآن كتاب تطبيق لا كتاب ترتيب فحسب.

فكما أن خلق الرسول كان القرآن، فينبغي على القارئ المؤمن أن يكون خلقه القرآن.

(1) السيد المرتضى، الأمالي، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ج 1، ص 25، الطبعة الأولى، 1325 - 1907 م، ج 1، ص 25.

(2) سورة الأنفال، الآية 2.

المفاهيم الرئيسية

- للقرآن حقّ علينا وينبغي أن نوفّيه حقّه برعاية جملة من الآداب أثناء تلاوته والاستماع إليه.
- من آداب تلاوة القرآن الإخلاص والتدبّر، فلا خير في القراءة التي لا تدبّر فيها .
- ثم يأتي التفكّر فالتأثّر والخشية من الله تعالى فالبكاء والحزن.
- أهمّ آداب القرآن تطبيقه على حياتنا كما كان رسول الله يوصف بأنّ خلقه القرآن.

للمطالعة

النَّظَرُ إِلَى الْقُرْآنِ نَظْرَةً تَعَلِّمُ

من مقاصد هذه الصَّحيفة الإلهية العظيمة ومطالبها المهمة التي يكشف التَّوجُّه إليها أهمَّ طريق للاستفادة الحقيقية من الكتاب الشَّريف، والذي يفتح على قلب الإنسان أبواب المعارف والحكم، هو أن يكونَ نظراً الإنسان إلى الكتاب الإلهي الشَّريف نظراً التَّعلُّم، وأن يراه كتاب التعليم والاستفادة، وأن يرى الإنسان نفسه مكلفاً بالتَّعلُّم والاستفادة منه.

وليس المقصود من التَّعلُّم والاستفادة أن نتعلَّم منه الجهات الأدبية والنحو والصَّرف، أو نأخذ منه جهة الفصاحة والبلاغة والنكات البيانية والبدعية، أو ننظر في قصصه وحكاياته بالنظر التاريخي والاطلاع على الأمم السالفة... فليس شيء من هذا داخلاً في مقاصد القرآن، بل هي أمور بعيدة عن المقصد الأصلي والحقيقي للكتاب الإلهي.

والذي أوجب أن تكون استفادتنا من هذا الكتاب العظيم قليلة جداً هو هذا الفهم الخاطيء. فإمَّا أننا لا ننظرُ إليه نظرة تعلُّم وتعليم كما هو الغالب علينا، أو أننا نقرأه للثواب والأجر فقط، فينصبُّ جهدنا على تجويده وقراءته قراءةً صحيحةً حتى ننال الثواب فقط، ونحن واقفون عند هذا الحدِّ وقانعون بهذا. وعليه يُمكن لأحدنا أن يكون قد قرأ القرآن لأكثر من أربعين سنةً، ولكن دون أن تحصل الاستفادة منه إلا من جهة الأجر وثواب القراءة.

وإمَّا أن نحصرَ اهتمامنا إن كان هدفنا التَّعلُّم والاستفادة، بالنكات البدعية والبيانية ووجوه إعجازها، أو أعلى من هذا بقليل بالجهات التاريخية وسبب نزول الآيات وأوقات النزول، وكون الآيات والسُّور مكيةً أو مدنيةً، واختلاف القراءات واختلاف المفسرين من العامة والخاصة وسائر الأمور العرضية الخارجة عن المقصد الحقيقي للكتاب المنزل. حتى صارت هذه الأمور بنفسها سبباً للاحتجاب عن القرآن والغفلة عن الذكر الإلهي.

فهذا الكتاب الشَّريف الذي هو بشهادة من الله تعالى كتاب الهداية والتَّعليم ونور طريق سلوك الإنسانية، على الإنسان أن يجلس على مآدبته ليتعلَّم من كلِّ قصة من قصصه، بل من كلِّ آية من آياته جهة الاهتداء إلى عالم الغيب وإلى طريق السَّعادة والكمال الإنساني. فعلى القارئ الحقيقي للقرآن الكريم أن يفهم المقصد من نزول الآيات لا السبب من النزول.

الدرس الرابع

الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يعرف الحجب الظلمانية التي تحول بين الإنسان والاستفادة من كتاب الله.
- 2 . يفهم الموانع التي تصدُّ عن سبيل كتاب الله.
- 3 . يستفيد من معرفة الحجب والموانع في عملية رفعها وإزالتها.

مقدّمة

إذا صارت عظمة كتاب الله معلومةً من جميع الجهات، وانفتحَ على الإنسان طريقُ الاستفادة الحقيقية منه، عندها ينبغي على المتعلّم والمستفيد من كتاب الله أن يجري أدباً آخر من الآداب المهمة حتّى تحصل الاستفادة التّامة، وهو رفع الموانع والعوائق الأساس التي تحول دون الاستفادة الكاملة منه. وهذه الموانع نُعبّر عنها بالحجب بين المستفيد والقرآن، وهذه الحجب كثيرةٌ نشير إلى بعضها:

حجاب رؤية النفس مستغنيةً

من الحُجب العظيمة التي تحول بين الإنسان وبين الاستفادة من كتاب الله العزيز؛ حجابُ رؤية النفس مستغنية عن كتاب الله، حيث يرى المتعلّم نفسه بسبب هذا الحجاب مستغن عنه أو غير محتاج للاستفادة منه. وهذا يُعتبر من أكبر وأخطر مكائد الشيطان الذي يُزيّن للإنسان دائماً الكّمالات الموهومة، ويرضيه ويقنعه بما هو عليه، وما في يديه من الكّمالات المحدودة الفانية والزائلة، ويسقط من عينه كلّ ما ليس بحوزته.

مثلاً: قد يقنع الشيطان أهل التجويد بذاك العلم الجزئيّ ويُزيّنه في أعينهم ويسقط سائر العلوم من أعينهم ويُطبّق معنى «حملة القرآن» عليهم، ويحرمهم من فهم الكتاب الإلهيّ النوراني ومن الاستفادة منه. ويمكن أن يُرضي أصحاب الأدب واللغة بتلك الصّورة اللغوية والظاهرية الفاقدة للّب، ويصوّر لهم أن جميع شؤون القرآن موجودة عندهم. وقد يشغل أهل التفاسير المتعارفة بوجوه القراءات، والآراء المختلفة لأصحاب اللغة، ووقت النزول، وشأن النزول، وكون الآيات مكّية أو مدنيّة وتعدادها، وتعداد الحروف وأمثال تلك الأمور...

فعلى كلّ باحث عن الاستفادة الحقيقية من كتاب الله، أن يخرق جميع هذه الحجب، فلا

يقف عندها بل عليه أن ينظر إلى ما هو أبعد من هذه الأمور، ولا يقنع عند حد معين من القرآن الشريف لكي لا يتأخر عن قافلة السالكين فيحرم من الدعوات الإلهية للاستفادة من هذه المأدبة السماوية.

والإشارة إلى هذا المعنى في القصص القرآنية كثيرة. فالنبي موسى كليم الله ﷺ مع ما له من المقام العظيم في النبوة، لم يقتنع بذلك المقام ولم يتوقف عند مقام علمه الشامخ، بل بمجرد أن التقى بإنسان كامل كالخضر ﷺ قال له بمنتهى التواضع والخضوع: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنِّمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾⁽¹⁾ وصار ملازماً لخدمته حتى أخذ منه العلوم التي احتاج إليها.

والنبي إبراهيم ﷺ لم يقتنع بمقام الإيمان والعلم الشامخ الخاص بالأنبياء فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾⁽²⁾، فأراد أن يرتقي من مقام الإيمان القلبي إلى مقام الاطمئنان الشهودي. وهناك ما هو أعظم من ذلك حيث يأمر الله تبارك وتعالى نبيه الخاتم محمد ﷺ وهو أعرف خلق الله على الإطلاق في الآية الكريمة الشريفة: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾⁽³⁾ بأن لا يقف عند حد في طلب العلوم الربانية والاستزادة منها. فهذه الأوامر الإلهية ونقل قصص الأنبياء وغيرها، إنما هي لأجل أن يتنبه الناس ويستيقظوا من نوم الغفلة الذي يتخبطون فيه.

حجاب الآراء الفاسدة والعقائد الباطلة

ومن الحجب المانعة أيضاً التي تصد عن الاستفادة الصحيحة من القرآن الكريم؛ حجاب الآراء الفاسدة والعقائد الباطلة، التي قد يكون سببها سوء استعداد الشخص، والأغلب أن سببها الأساس هو التبعية والتقليد الأعمى للغير.

وهذا الحجاب من الحجب الرئيسية التي تحجب الإنسان عن معارف القرآن وحقائقه النورانية، فمثلاً إذا رسخ في قلوبنا اعتقاد ما بمجرد الاستماع إلى الأب أو الأم أو بعض الجهلة، فإن مثل هذه العقيدة قد تكون حجاباً بيننا وبين الآيات الشريفة الإلهية. وإذا وردت

(1) سورة الكهف، الآية 66.

(2) سورة البقرة، الآية 260.

(3) سورة طه، الآية 114.

آلاف الآيات والروايات التي تُخالف تلك العقيدة، فإمّا أن نصرّفها عن ظاهرها أو أن لا ننظر فيها نظر الفهم. والأمثلة فيما يرجع إلى العقائد والمعارف كثيرة، نشير إلى واحدة منها من باب المثال حيث إنه أسهل للفهم.

إن تلك الآيات الكثيرة الراجعة إلى معرفته ولقائه، والروايات الكثيرة في هذا الموضوع، والإشارات العديدة والكنائيات والتصريحات المتنوّعة في أدعية ومناجاة الأئمة عليهم السلام، مثل هذه الشواهد الكثيرة بمجرد ما تصطدم بتلك العقيدة التي انتشرت بين عوام الناس أن طريق معرفة الله مسدود بشكل كامل أمامنا نحن البشر العاديّون، حيث يقيسون باب معرفة الله ومشاهدة جماله على باب الممنوع بل والممتنع في التفكير بذاته المقدّسة. فإمّا أن يؤوّلوا ويوجّهوا تلك الآيات والروايات، وكذلك الإشارات والكنائيات والتصريحات في أدعية الأئمة ومناجاتهم، وإمّا ألا يدخلوا في هذا الميدان أصلاً ولا يفتحوا على أنفسهم تلك المعارف التي هي قرّة عين الأنبياء والأولياء. وممّا يوجب الأسف الشديد لأهل الله، أن باباً من المعرفة الذي يُمكن أن يُقال أنه غاية بعثة الأنبياء ومنتهى مطلوب الأولياء، قد سدّوه على الناس حتّى صار التقوّه به، عند البعض كفرًا محضًا ومحض الزندقة.

حجاب شبهة التفسير بالرأي

ومن الحجب الغليظة المانعة من الاستفادة من هذه الصّحيفة النورانية، الاعتقاد بأنّه ليس لأحد حق الاستفادة من القرآن الشّريف إلا من خلال ما كتبه المفسّرون وفهموه. فقد اشتبّه على الناس التفكير والتدبّر في الآيات الشّريفة بالتفسير بالرأي الممنوع. ومن خلال هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عارياً من جميع فنون الاستفادة واتّخذوه مهجوراً كلياً.

إن من المحتمل بل من المظنون أن التفسير بالرأي المنهي عنه هو الراجع إلى آيات الأحكام الشرعية التي تقصر عنها أيدي الآراء والعقول، والتي لا بدّ وأن تؤخذ بصرف التعبّد والانقياد من خزّان الوحي ومهابط ملائكة الله، لا إلى آيات المعارف والعلوم العقلية والأخلاقية. كما أن أكثر الروايات في هذا الباب وردت في مقابل فقهاء العامة الذين كانوا يريدون أن يفهموا دين الله بعقولهم وقياساتهم. وما في بعض الروايات الشّريفة من أنّه:

«ليس شيء أبعد عن عقول الرجال من تفسير القرآن»⁽¹⁾، وكذلك الرواية الشريفة: «إن دين الله لا يُصاب بالعقول»⁽²⁾ تشهد بأن المقصود من دين الله الأحكام التعبدية للدين، وإلا فباب إثبات الصانع والتوحيد والتقديس وإثبات المعاد والنبوة بل مطلق المعارف حق مطلق للعقول ومن مختصاتها.

حجاب الذنوب والمعاصي

ومن الحجب المانعة من فهم القرآن الشريف، ومن الاستفادة من معارف هذا الكتاب السماوي ومواعظه، حجاب المعاصي والذنوب الحاصلة من الطفيان وعصيان رب العالمين؛ التي تحجب القلب عن إدراك الحقائق الإلهية العزيزة، يقول تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾⁽³⁾. فكل عمل من الأعمال الصالحة أو السيئة صورة وتأثير في الآخرة وعالم الملكوت تتناسب معه، وله صورة أيضاً وتأثير في النفس الإنسانية وملكوته، تحصل بواسطتها إما النورانية في النفس، فيكون القلب مطهراً ومنوراً، وفي هذه الحالة تكون النفس كالمرآة المصقولة الصافية، اللاتقة للتجليات الغيبية وظهور الحقائق والمعارف فيه. وإما أن يصير باطن النفس بهذه الأعمال ظلمانياً وخبيثاً، وفي هذه الصورة يكون القلب كالمرآة المندسة، فلا تنعكس فيها المعارف الإلهية ولا الحقائق الغيبية. فيقع قلب الإنسان في هذه الحالة وبالتدريج تحت سلطة الشيطان، ويكون إبليس اللعين هو المتصرف في مملكة روجه. ويقع السمع والبصر وسائر القوى أيضاً تحت تصرف ذلك الخبيث، وينسد السمع بالكلية عن المعارف والمواعظ الإلهية. ولا ترى العين الآيات الباهرة الإلهية، وتعمى عن الحق وآثاره وآياته، ولا يتفقه القلب في الدين ويحرم من التفكير في آيات الحق وتذكرها، كما قال الحق تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾⁽⁴⁾. فيكون نظره إلى العالم كنظر الأنعام المحرومة من نعمة التفكير والتدبر، ويصبح قلبه كقلوب الحيوانات التي لا نصيب لها من التفكير والتذكر، بل يمكن

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 95.

(2) م. ن، ج 2، ص 303.

(3) سورة المطففين، الآية 14.

(4) سورة الأعراف، الآية 179.

أنَّ تزداد حالة الغفلة والاستكبار فيه يوماً بعد يوم من جرّاء عدم النظر في الآيات الإلهية وسماع المواعظ الربّانية، فيغدو أردل وأضلّ من الحيوان.

حجاب حبّ الدنيا

ومن الحجب الغليظة التي هي مانع سميك بيننا وبين معارف القرآن ومواعظه؛ حجاب حبّ الدنيا. حيث يصرف القلب تمام همّته في الدنيا فتكون وجهة القلب تماماً إلى الدنيا ويفغل القلب بواسطة هذه المحبّة عن ذكر الله ويعرض عنه. وكلّما ازداد التعلّق بالدنيا وشهواتها ازداد حجاب القلب والساتر ضخامة. وربما تغلبت هذه العلاقة على القلب ويتسلط سلطان حبّ الجاه والشرف على القلب فينطفئ نور فطرة الله تماماً، وتغلّق أبواب السعادة على الإنسان. ولعلّ المراد من إفضال القلوب المذكورة في الآية الشريفة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾⁽¹⁾ هو هذه الأفضال والأغلال والعلائق الدنيوية.

فمن أراد أن يستفيد من القرآن ويأخذ نصيبه من المواعظ الإلهية لا بدّ وأن يطهّر قلبه من هذه الأرجاس، ويزيل أدران المعاصي القلبية والاشتغال بغير الله من القلب، لأنّ القلوب غير المطهّرة ليست حرماً لهذه الأسرار كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾⁽²⁾ فكما أنّ غير المطهّر بالطهارة الظاهرية ممنوع عن ظاهر هذا الكتاب ومسه في العالم الظاهر تشريعاً وتكليفاً، كذلك من كان ملوثاً بأرجاس التعلّقات الدنيوية والمحدودة والفانية ممنوع من معارفه ومواعظه وباطنه وسره قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾⁽³⁾. فغير المتّقين محروم من أنوار القرآن ومواعظه وعقائده الحقّة. والآية الشريفة التالية تكفي لأهل اليقظة بشرط التدبّر فيها، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁽⁴⁾.

(1) سورة محمد، الآية 24.

(2) سورة الواقعة، الآيات 77 - 79.

(3) سورة البقرة، الآية 2.

(4) سورة المائدة، الآيات 15 - 16.

المفاهيم الرئيسية

- إزالة الحجب والموانع بين المستفيد والقرآن شرط أساس لتحقيق الاستفادة الكاملة من كتاب الله.
- من الحجب التي تصدُّ عن سبيل القرآن، الشعور بالاستغناء عن كتاب الله، وعدم الحاجة الفعلية والضرورية إليه في مسيرة الإنسان الإيمانية والتكاملية.
- من الحجب التي تحول دون الاستفادة من القرآن الكريم الشبهات العقائدية والاعتقادات الخاطئة المتعلقة بالقرآن فهماً وتأويلاً وتفسيراً.
- من الحجب التي تمنع من فهم حقائق القرآن والاستفادة منه أيضاً، تلوث باطن الإنسان بالمعاصي والذنوب. فمعارف هذا الكتاب المقدس وحقائقه لا يمسه إلا المطهرون من دنس الخطايا والآثام.
- حبّ الدنيا أيضاً والتعلق بها يصرف القلب عن الله فتكون وجهته إلى غيره فيغفل القلب بواسطة هذه المحبة عن ذكر الله ويعرض عنه، فيحجب عن معارف القرآن الحقّة.

للمطالعة

حجاب شبهة التفسير بالرأي

ومن الحجب الغليظة المانعة من الاستفادة من هذه الصحيفة النورانية: الاعتقاد بأنه ليس لأحد حق الاستفادة من القرآن الشريف إلا من خلال ما كتبه المفسرون وفهموه. فقد اشتبه على الناس التفكير والتدبر في الآيات الشريفة بالتفسير بالرأي الممنوع. ومن خلال هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عارياً من جميع فنون الاستفادة واتخذوه مهجوراً كلياً؛ في حين أن الاستفادات الأخلاقية والإيمانية والسلوكية لا ربط لها بالتفسير، فكيف بالتفسير بالرأي.

فمثلاً إذا استفاد أحدٌ من كيفية تباحث موسى مع الخضر وكيفية تعاملهما، وشدّ موسى رحاله إليه مع ما له من عظمة مقام النبوة لأخذ العلم منه، وكيفية عرض حاجته على الخضر كما ذكرت في الكريمة الشريفة: ﴿هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾⁽¹⁾، وكيفية جواب الخضر والاعتذارات التي وقعت من موسى، إذا استفاد منها عظمة مقام العلم وآداب سلوك المتعلم مع المعلم، والتي تبلغ في الآيات المذكورة نحو عشرين أدباً، فما علاقة هذه الاستنتاجات بالتفسير، فضلاً من أن تكون تفسيراً بالرأي؟!

والاستفادات من هذا القبيل في القرآن كثيرة، ففي المعارف مثلاً؛ إذا استفاد أحد من قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾ الذي يحصر جميع المحامد بالله ويخصّص جميع الثناءات بالحقّ تعالى، إذا استفاد منها التوحيد الأفعالي، وقال بأنه يُستفاد من الآية الشريفة أنّ كلّ كمال وجمال وكلّ عزّة وجلال موجودة في العالم والتي ينسبها القلب المحجوب إلى الخلائق والموجودات، هي من الحقّ تعالى وحده وأنه ليس لموجود من قبل نفسه شيء، لذا تكون المحمّدة والثناء خاصة بالحقّ لا يُشاركه فيها أحد. فأيّ ربط لهذا بالتفسير حتى يُسمّى بالتفسير بالرأي أو لا يُسمّى؟! إلى غير ذلك من الأمور التي تُستفاد من لوازم الكلام والتي لا ربط لها بأيّ وجه بالتفسير بالرأي.

(1) سورة الكهف، الآية 66.

(2) سورة الزمر، الآية 75.

مضافاً إلى أن في التفسير بالرأي كلاماً أيضاً، وهو أنه من المحتمل بل من المظنون أن التفسير بالرأي المنهي عنه هو الراجع إلى آيات الأحكام الشرعية التي تقصر عنها أيدي الآراء والعقول، والتي لا بد وأن تؤخذ بصرف التعبد والانقياد من خزان الوحي ومهابط ملائكة الله، لا إلى آيات المعارف والعلوم العقلية والأخلاقية. كما أن أكثر الروايات في هذا الباب وردت في مقابل فقهاء العامة الذين كانوا يريدون أن يفهموا دين الله بعقولهم وقياساتهم. وما في بعض الروايات الشريفة من أنه: «ليس شيء أبعد عن عقول الرجال من تفسير القرآن»⁽¹⁾، وكذلك الرواية الشريفة: «إن دين الله لا يصاب بالعقول»⁽²⁾ تشهد بأن المقصود من دين الله الأحكام التعبدية للدين، وإلا فباب إثبات الصانع والتوحيد والتقدیس وإثبات المعاد والنبوة بل مطلق المعارف حق مطلق للعقول ومن مختصاتهما.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 95.

(2) م. ن، ج 2، ص 303.

الدرس الخامس

مقاصد القرآن

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يتعرّف على مقاصد القرآن.
- 2 . يُبيّن دور القرآن في توطيد العلاقة مع الله.
- 3 . يشرح كليات الأخلاق الإيمانيّة في القرآن.

مقدمة

لقد تضمّن القرآن الكريم المقاصد الإيمانيّة الكاملة والحقائق الضروريّة لكمال الإنسان ورفقيّه ووصوله إلى مقام القرب الإلهيّ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾⁽¹⁾.

وفي ما يلي نذكر بعضاً من مقاصد القرآن العُليا ومضامينه الراقية التي تُيسّر للإنسان هدايته وتقويم حياته، ومنها:

أولاً، معرفة الله:

إنّ قضية الألوهيّة هي موضوع العقيدة الإسلاميّة الرئيّس وبالتالي فهي تشمل الحيّز الأكبر من كتاب الله تعالى.

وما نزل القرآن ليقول للناس إنّ هناك إلهاً، فإنّ الفطرة وأدنى التأمّل بالوجود باعثنان على الإقرار بوجود المبدع المنظم.

يقول تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾⁽²⁾.

إنّما المشكلة بأنهم لا يعرفونه حقّ المعرفة ومن ثمّ لا يعبدونه حقّ العبادة، ومن ذا الذي يُدرك هذا المقام؛ يقول تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾⁽³⁾.

وعن النبيّ ﷺ: «لو عرفتم الله حقّ معرفته لزالتم بدعائكم الجبال الراسيات، ولا يبلغ أحد كنه معرفته»، وقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، الله أعلى وأجلّ أن يطّلع أحد على كنه معرفته».

(1) سورة الإسراء، الآية 9.

(2) سورة لقمان، الآية 25.

(3) سورة الأنعام، الآية 91.

ولهذا قال في دعائه: «يا من لا يعلم ما هو إلا هو».

وقال: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك»⁽¹⁾.

ولعل المعرفة المقصودة هي معرفة الذات الإلهية حق المعرفة فمن ذا يدركها؟ أما معرفته سبحانه بصفات الجمال والكمال فيمكن إدراكها من خلال التأمل في نعم الله سبحانه ومخلوقاته. ونظام الكون الذي أتقن صنعه الجبار.

يقول تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾⁽²⁾.

وقد دعا القرآن إلى توحيد الله تعالى بما يليق بذاته وصفاته وأفعاله.

يقول تعالى في مقام بيان الصفات: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٣) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٣٣) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...⁽³⁾. ويقول سبحانه: ﴿يَسْجُدُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽⁴⁾.

الاحتجاجات الإلهية

هذه الدعوة لتوحيد الله تعالى ومعرفته بصفاته وأفعاله لم تكن دون دليل، فمن يقرأ في كتاب الله يُلاحظ أن القرآن يستعين في إبلاغ رسالته بلغتين هما لغة العقل ولغة القلب، فقد اعتبر القرآن العقل حجة على العباد فدعا إلى إعماله والاستفادة منه، كما ذم من عطله ولم يهتد بهداه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ﴾⁽⁵⁾.

(1) ابن أبي جمهور الأحسائي، عوالي اللئالي، ج 4، ص 132.

(2) سورة النمل، الآية 88.

(3) سورة الحشر، الآيات 22 - 24.

(4) سورة الحشر، الآية 24.

(5) سورة الأنفال، الآية 22.

وقد أقام القرآن الدلائل والبراهين على مدعياته، وتحدى المنكرين على الإتيان ببراهين تتقضاها: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (1).

وفي الوقت الذي يدعو فيه القرآن إلى إعمال العقل يبيّن موانع إصابة العقل للحق والصواب كاتّباع الظنّ، وتقليد الآباء واتّباع الهوى.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ (2).

ويقول عزّ من قائل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَيَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (3).

فالقرآن لم يدع الإنسان إلى الإيمان بغير دليل بل ساق أدلة برهانية عقلية وأخرى وجدانية، وخاطب الفطرة الإنسانية.

يقول سبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَنَجْعَلُ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَنَجْعَلُ لَهَا رُوسِي وَنَجْعَلُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَمْ لَمْ نَعْلَمْ بِمَا أَكْفَرْتُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦١) ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ حَقْلًا وَنَجْعَلُ الْأَرْضَ حَقْلًا أَمْ لَمْ نَعْلَمْ بِمَا أَكْفَرْتُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (4).

ثانياً، معرفة الأنبياء ﷺ :

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ (5) ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (6).

استعمل القرآن الكريم الأسلوب القصصي في تبليغ المفاهيم والعبير والمقاصد، لما لهذا الأسلوب من أثر كبير في القلوب، فذكر قصص بعض الأنبياء لنعّير منهم ومن قصصهم، وليكونوا صلة وصل بين العباد وبين الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

(1) سورة البقرة، الآية 111.

(2) سورة النجم، الآية 23.

(3) سورة البقرة، الآية 170.

(4) سورة النمل، الآيتان 61 و 62.

(5) سورة يوسف، الآية 109.

(6) سورة يوسف، الآية 111.

**فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمَنْ فِي الْأَرْضِ فَأَنْظِرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١﴾**

وتشكل القصص القرآنية جانباً هاماً من النصّ القرآنيّ حتى ورد في بعض الأحاديث أنّها ثلث القرآن، وهناك عدد كبير منها مختصّ بقصص الأنبياء عليهم السلام وتتركز بشكل أساس في السور التي حمل بعضها اسم واحد من الأنبياء كسورة يونس وإبراهيم وهود وغيرها، وهذا الاستخدام الواسع لأسلوب القصة يفيد بوضوح أنّ القصة القرآنية لها مدخلة مهمة في تحقيق الأغراض والأهداف القرآنية.

كما أنّ القصة في القرآن لا تخلو من نكات بلاغية، وقيمة تاريخية، ولمسات أدبية فنية، ودروس مستفادة من معاينة القدوة في سلوكه ومواقفه ليزداد الإنسان معرفة بالأنبياء الذين يشكلون القدوة الحسنة.

يقول الإمام الخميني قدس سره حول هذا الأمر:

« ومن مقاصد هذه الصحيفة النورانية قصص الأنبياء والأولياء والحكماء، وكيفية تربية الحقّ إليّهم، وتربيتهم الخلق. فإنّ في تلك القصص فوائد لا تحصى.. ففي قصة خلق آدم عليه السلام والأمر بسجود الملائكة، وتعليمه الأسماء وقضايا إبليس وأدم التي تكرّر ذكرها في كتاب الله من التعليم والتربية والمعارف والمعالم - لمن كان **﴿لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** (2) - ما يُحَيِّر الإنسان.. فليس هذا الكتاب كتاب قصة وتاريخ بل هو كتاب السير والسلوك إلى الله، وكتاب التوحيد والمعارف والمواضع والحكم» (3).

كما أنّ من الظواهر التي تلفت النظر في القرآن ظاهرة التكرار في القصص وغيرها حيث نجد الحديث عن نبيّ واحد في أكثر من سورة، ويبدو ذلك جلياً في الحديث عن نبيّ الله موسى عليه السلام، وحين ننظر إلى القرآن على أنه كتاب هداية وتربية لهذه الأمة والبشرية، تتوضّح لدينا حكمة ذلك؛ لأنّ التربية تحتاج إلى التذكير الدائم، وليست التربية كلاماً يُقال مرّة وكفى قال تعالى: **﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** (4).

(1) سورة النحل، الآية: 36.

(2) سورة ق، الآية 37.

(3) القرآن النقل الأكبر، جمع لكلمات الإمام الخميني قدس سره، ص 40.

(4) سورة الذاريات، الآية 55.

ثالثاً، معرفة المعاد وبيان أحواله:

هناك جانب آخر أخذ حيزاً هاماً من مطالب ومضمون النصّ القرآنيّ، وذلك في بيان مسألة الإيمان باليوم الآخر وإقامة الأدلّة والبراهين على إثباته. حتّى أنّ القرآن الكريم يلحق مسألة الإيمان باليوم الآخر في كثير من المواضع بالإيمان بالله مباشرة إثباتاً ونفيّاً، فيصف المؤمنين بأنّهم هم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويصف الكافرين بأنّهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. والقرآن في حديثه المستفيض عن المعاد أراد إثباته أولاً للجاحدين به والمنكرين للبعث والحساب، فساق الأدلّة النظرية والبراهين العقلية وأتبعها بأمور وجدانية يراها الإنسان بأمّ عينه.

﴿وَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ (1).

ثمّ بيان حوادث جرت في التاريخ وأورد قصتها القرآن لمزيد يقين كقصّة أصحاب الكهف وقصّة العزير الذي أماته الله مائة عام ثمّ بعثه. ولئن كان للحديث عن البعث والحساب بعض أسبابه التي تعود إلى إنكار العرب الباطن للبعث، ولكنّ بعضه الآخر كان لضرورة ترسيخ هذه العقيدة في نفوس المؤمنين لما لها من تأثير بالغ في سلوك الإنسان، فإنّه لا شيء يُمكن أن يدفع الإنسان للتنازل عن المتاع الزائد عن الحدّ المدفوع إليه بغريزته والالتزام بالحدود التي رسمها الله إلاّ الإيمان الجازم بأنّ ما يتركه في الدنيا طاعة لله يلقاه في الآخرة مضاعفاً، ولا يزول أبداً. ويغدو حديث القرآن عن الآخرة بمثابة شريط حافل بالمشاهد الحيّة حتى لكأنّ الإنسان يُخيّل إليه أنّه يراها عياناً وليست حديثاً عن المستقبل. إنّ شريط يجمع بين مشاهد العذاب ومشاهد النعيم ليختار الإنسان أيّهما شاء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ (2).

(1) سورة ق، الآيات 9-11.

(2) سورة القمر، الآيات 54-55.

وقال سبحانه: ﴿وإِذْ أَرَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضْرٌ مُدَوَّنَةٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعٌ
أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رُحْمٌ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١﴾.

ويقول نعوذ بلطفه من عذابه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوَءَا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢﴾.

رابعاً، الأخلاقيات الإيمانية في القرآن:

موضوع آخر من موضوعات القرآن الكريم ومقصد من مقاصده هو الأخلاقيات الإيمانية وما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون بوحى من إيمانهم، في مقابل ما هم عليه الكافرون والفاسقون بوحى من ضلالتهم.

يقول الإمام الخميني قَدَسَ سِرُّهُ: «ومن مقاصده ومطالبه الدعوة إلى تهذيب النفوس وتطهير البواطن من أرجاس الطبيعة وتحصيل السعادة. وبالجملة كيفية السير والسلوك إلى الله تعالى، وهذا المطلب الشريف منقسم إلى شعبتين مهمتين:

إحدهما: التقوى بجميع مراتبها المندرجة فيها التقوى عن غير الحق، والإعراض المطلق عما سوى الله.

وثانيهما: «الإيمان بتمام المراتب والشؤون المندرجة في الإقبال على الحق، والرجوع والإنابة إلى ذاته المقدسة، وهذا من المقاصد المهمة لهذا الكتاب الشريف وأكثر مطالبه ترجع إلى هذا المطلب إما بلا واسطة أو مع الواسطة»^(٣).

والأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في هذا الدين، كما إنها شاملة للسلوك البشري كله ولا يوجد عمل واحد يخرج عن دائرة الأخلاق فالصلاة لها أخلاق هي الخشوع، والكلام له أخلاق وهو الإعراض عن اللغو، والتعامل مع الآخرين له أخلاق هي الوفاء والصدق ورعاية العهد.

وقد قال تعالى بحق الرسول الكريم ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾. ولكنه أيضاً (أي

(1) سورة الإنسان، الآيات 20-23.

(2) سورة التحريم، الآية 6.

(3) القرآن الثقل الأكبر، جمع لكلمات الإمام الخميني قَدَسَ سِرُّهُ، ص 29-40.

(4) سورة القلم، الآية 4.

الخلق) من خصوصيات الإيمان ومقتضياته.

وقد اهتم القرآن المجيد بإبراز الجانب السلوكي الأخلاقي للعقيدة المنحرفة قال تعالى:

﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَاFٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءِإِنَّا قَالِ كَ أَسطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١﴾.

يقابل ذلك إبراز السلوك الأخلاقي الصحيح المصاحب للعقيدة الصحيحة: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٢﴾.

فالقرآن هو مفتاح سعادة الإنسان وباب فلاحه: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ﴿٣﴾. وهو شفاء ورحمة لكل من تمسك به، وفي ما يلي نماذج من آيات القرآن تكشف عن عمق معانيه ودقة أفكاره في مجال نظام السير والسلوك إلى الله تعالى:

أ - العلاقة مع الله:

فالقرآن الكريم يوثق الإيمان في القلب ويربط ذلك القلب بالله في جميع أحواله؛ لأنه يربط الأحوال كلها والوجود كله بالله سبحانه: فالمولد والممات بيد الله، والرزق بيد الله بجميع ألوانه وأشكاله، وبيده الضر والنفع، ثم البعث والحساب والثواب والعقاب؛ أمور كلها بيد الله.

فالله تعالى في كتابه يُعرِّفنا بنفسه لنعرفه كما ينبغي لجلال وجهه. فهو يُعرِّفنا نفسه بأنه: ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾. وأنه ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٤﴾، وأنه ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ... ﴿٥﴾. ليولِّد في قلوبنا ذلك الإحساس برقابة الله، فنحرص على نقاوة أعمالنا ومشاعرنا.

(1) سورة القلم، الآيات 10-16.

(2) سورة الفرقان، الآية 63.

(3) سورة طه، الآيتان 1 و 2.

(4) سورة طه، الآية 7.

(5) سورة المجادلة، الآية 7.

ويعرفنا بأن: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (1). وأن بيده ﴿مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (2).
لنتطلع إليه وحده في السراء والضراء، ولنواجه المصاعب والشدائد بالصبر والتعلق به
وبفرضه المنزل من عنده.

ويعرفنا بأنه ﴿الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (3). ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (4).
يعلّمنا بذلك أن لا يشغلنا القلق على الرزق، وأن البشر ليسوا هم من يتصرفون في
أرزاقنا، بل ذلك كله بيده وحده وكذلك يعرفنا بأنه هو الذي يحيي ويميت، وليس هذا شأنه
فحسب بل هو بعد ملك ومالك يوم الدين.

هذا ما تقرره هذه الآيات الكريمة وغيرها من كتاب الله ليعيش القلب آفاق معرفة الله
تعالى ومنهجاً وسلوكاً، وتكون حياته كلها مع الله.

ب- العلاقة مع الآخر:

وكما اهتم القرآن الكريم بإبراز الجانب السلوكي والأخلاقي للعقيدة المنحرفة وندد
به وبأصحابه، كذلك أولى عناية واضحة بإبراز السلوك الأخلاقي الصحيح وأفق التعاطي
الصحيح مع الآخرين.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿وَلَمَنْ
انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٢) ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٥).
﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنِلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (6).

فمنطق القرآن هو: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (7).

(1) سورة الزمر، الآية 63.

(2) سورة يس، الآية 83.

(3) سورة الذاريات، الآية 58.

(4) سورة الرعد، الآية 26.

(5) سورة الشورى، الآيات 40 - 43.

(6) سورة الممتحنة، الآية 8.

(7) سورة الأعراف، الآية 199.

ج- الاستقامة:

ويمكن بحق أن نلخص مبادئ الإسلام كلها بكلمة الاستقامة، فإنها الكلمة الشاملة للاستقامة في العقيدة بما فيها التوحيد عن الشبيه، والاستقامة في الأعمال والأخلاق وجميع التعاليم.

ومعنى الاستقامة هو أن نقف عند حدود الله ولا نتحرف عن الحق إلى الباطل وعن الهداية إلى الضلال. أن نسير بعقيدتنا وأقوالنا وأفعالنا على الصراط المستقيم، فعن الإمام علي عليه السلام قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِم، قَالَ: قُلْتُ: رَبِّيَ اللَّهُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، فَقَالَ عليه السلام: لِيَهْتِكَ الْعِلْمُ يَا أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً»⁽¹⁾.

يقول تعالى: ﴿أَفَنُيْمِشِي مُكْبَأً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁽²⁾.

﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾⁽³⁾.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁴⁾.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽⁵⁾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾⁽⁶⁾.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾⁽⁷⁾.

(1) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج40، ص178.

(2) سورة الملك، الآية 22.

(3) سورة هود، الآية 112.

(4) سورة الأنعام، الآية 79.

(5) سورة الأنعام، الآية 162.

(6) سورة الفاتحة، الآية 5.

(7) سورة الكهف، الآية 110.

المفاهيم الرئيسية

لقد تضمّن القرآن الكريم المقاصد الإيمانية الكاملة والحقائق الضرورية لكمال الإنسان ورفيّه ووصوله إلى مقام القرب الإلهي.

منها:

- أولاً، معرفة الله: فالناس لا يعرفونه حقّ المعرفة ومن ثمّ لا يعبدونه حقّ العبادة.
- ثانياً، معرفة الأنبياء عليهم السلام. يقول الإمام الخميني قدس سرّه في هذا الأمر: «ومن مقاصد هذه الصحيفة النورانية قصص الأنبياء والأولياء والحكماء، وكيفية تربية الحقّ إياهم، وتربيتهم الخلق. فإنّ في تلك القصص فوائد لا تُحصى...»
- من مقاصد القرآن معرفة المعاد وبيان أحواله وقد أخذ حيزاً هاماً من مطالب ومضمون النصّ القرآنيّ، من خلال بيان مسألة الإيمان باليوم الآخر وإقامة الأدلّة والبراهين على إثباته.
- منها: الأخلاقيات الإيمانية وما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون بوحى من إيمانهم، في مقابل ما هم عليه الكافرون والفاسقون بوحى من ضلالهم. يقول الإمام الخميني قدس سرّه: «ومن مقاصده ومطالبه الدعوة إلى تهذيب النفوس وتطهير البواطن من أرجاس الطبيعة وتحصيل السعادة...»
- يرسم القرآن للإنسان خريطة للعلاقة مع الله ومع نفسه ومع الآخرين...
- ويؤكد على أهمية الاستقامة بوقوفنا عند حدود الله وعدم الانحراف عن الحقّ إلى الباطل.

للمطالعة

النبع الفيّاض

يقول الإمام الخميني قده: «أوصي الإخوة الأعزّاء أن لا يغفلوا... عن الاستئناس بالقرآن الكريم، هذه الصحيفة الإلهية وكتاب الله الهادي، فكلّ ما عند المسلمين وما سيكون عندهم خلال عصور التاريخ الماضية والقادمة إنّما هو من البركات المغدقة لهذا الكتاب المقدّس. وبهذه المناسبة أطلب من كلّ العلماء الأعلام وأبناء القرآن والعلماء العظام أن لا يغفلوا عن هذا الكتاب المقدّس الذي فيه تبيان كلّ شيء...»

والآن فإنّ الصورة المدوّنة لهذا الكتاب المأخوذ عن لسان الوحي بعد النزول قد وصلت إلى أيدينا كاملة دون زيادة حرف أو نقصان حرف، فالحذر الحذر من هجره لا سمح الله. نعم، الأبعاد المختلفة لهذا الكتاب بكلّ أفاقها ليست في متناول البشر العاديين لكن على أهل المعرفة والتحقيق في الفروع المختلفة أن ينهلوا بقدر علمهم ومعرفتهم وكفاءاتهم من هذا الكنز العرفانيّ الإلهيّ الفيّاض والبحر الموّج النازل على محمّد ص، ويُقدّموه بتعبيرات مختلفة قريبة للأذهان إلى الآخرين... والمتّقون التوّاقون إلى الهداية عليهم أن يحملوا بارقة ممّا أخذوه من نور التقوى عن هذا النبع الفيّاض بالهدى للمتّقين إلى العشاق الوالهيّن إلى الهداية الإلهية.

... اجعلوا تدريس القرآن نصب أعينكم في جميع أبعاده، كي لا تدمموا وتأسفوا لا سمح الله على ما فات من شبابكم حين يهجم عليكم ضعف الشيب في آخر العمر، مثل كاتب هذه السطور»⁽¹⁾.

(1) صحيفة الإمام الخميني قده، ج 20، ص 81.

المحور الثاني

علوم ومعارف قرآنيّة

الدرس السادس

أسماء القرآن وأوصافه

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يعرف معنى القرآن وأسماءه.
- 2 . يشرح أوصاف القرآن.
- 3 . يفهم نكات كون لغة القرآن عربية.

معنى القرآن

أ. المعنى اللغوي: تعددت آراء اللغويين والباحثين في علوم القرآن في تحديد معنى القرآن وأصله الاشتقاقي اللغوي إلى أقوال كثيرة⁽¹⁾، أهمها وأقواها أن القرآن: اسم مهموز مصدر لقرأت؛ بمعنى التلاوة؛ كالرجحان والغفران، سُمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر؛ أي المقروء أو ما يُقرأ. واستخدم القرآن بمعنى القراءة، كالكتاب الذي يُطلق على المكتوب؛ بمعنى الكتابة.

والقراءة في اللغة هي: «ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعضها الآخر في الترتيل... لا يُقال: قرأت القوم؛ إذا جمعتهم، ويدلّ على ذلك أنه لا يُقال للحرف الواحد إذا تفرّقه به قراءة، والقرآن في الأصل مصدر، نحو: كفران ورجحان. قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِغْ قُرْآنَهُ»⁽²⁾،⁽³⁾.

والمعنى لا تعجل به إذ علينا أن نجمع ما نوحيه إليك؛ بضمّ بعض أجزائه إلى بعض، وقراءته عليك، فلا يفوتنا شيء منه حتى يحتاج إلى أن تسبقنا إلى قراءة ما لم نوحه بعد. وقيل: المعنى إن علينا أن نجمعه في صدرك؛ بحيث لا يذهب عليك شيء من معانيه، وأن نثبت قراءته في لسانك؛ بحيث تقرأه متى شئت. وهذا لا يخلو من بعد. وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِغْ قُرْآنَهُ﴾

(1) لمزيد من التفصيل: انظر: الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، ص273-276، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، لام، دار إحياء الكتب العربية: عيسى البايي الحلبي وشركاؤه، 1376هـ.ق/ 1957م، ج1، السيوطي، جلال الدين: الإتيان في علوم القرآن، تحقيق سعيد المندوب، ط1، بيروت، دار الفكر، 1416هـ.ق/ 1996م، ج1، ص144؛ الزرقاني، عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص15-17، تحقيق فوز أحمد زمّلي، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1415هـ.ق/ 1995م.

(2) سورة القيامة، الآيتان 17 و 18.

(3) الأصفهاني، الراغب: مفردات ألفاظ القرآن، ص668، تحقيق صفوان داوودي، قم المقدّسة، نشر طليعة النور؛ مطبعة سليمان زاده، 1427هـ.ق، ط2، مادة «قرأ».

قُرْءَانُهُ؛ أي: فإذا أتممنا قراءته عليك وحياً؛ فاتبع قراءتنا له، وقرأ بعد تمامها⁽¹⁾.
 ب. المعنى الاصطلاحي: ذُكرت فيه تحديدات مختلفة، وردت عليها إشكالات عدّة،
 ولعلّ أقلّها محلاً للإشكالات ما اشتهر على لسان الأصوليين والفقهاء واللغويين ويوافقهم
 عليه المتكلمون: «اللفظ المنزل على النبي ﷺ، المنقول عنه بالتواتر، المتعبّد بتلاوته».

أسماء القرآن

اختلف الباحثون في علوم القرآن في عدد أسماء القرآن، وتفاوتت تحديداتهم في هذا
 الصدد، حيث حصر بعضهم أسماء القرآن في اسم «القرآن» فقط، وعدّ الأسماء
 الأخرى المتداولة مجرد صفات للقرآن وليست أسماء له⁽²⁾، وذهب آخرون إلى أنّ
 للقرآن 55 اسماً⁽³⁾، وآخرون إلى أنّ له 95 اسماً⁽⁴⁾...

ولعلّ السبب في هذا الاختلاف راجع إلى وجود خلل في التمييز بين أسماء القرآن
 وصفاته، أو إلى تباين الأذواق والمعايير المعتمدة في تحديد الأسماء والصفات⁽⁵⁾. واسم
 الشيء، هو تعريفه وتشخيصه في الخارج ضمن أبعاد وحدود تحكي ماهية المسمّى ويُعرّف
 بها. وأمّا الصفة فهي تحكي خاصية معينة من المسمّى وعليه، فأسماء القرآن هي خصوص
 المعارف والمشخصات التي تحكي عن القرآن في الخارج من أنّه كلام الله تعالى المنزل
 على نبيه ﷺ بالإعجاز. وأمّا صفات القرآن فهي تحكي عن خاصية معينة يشتمل عليها
 القرآن من قبيل: الهداية، التبشير، الإنذار...

والمشهور من الأسماء، هو التالي⁽⁶⁾:

أ. القرآن: وردت مفردة «قرآن» 68 مرة في القرآن الكريم (قرآن: 58 مرة/ قرآناً:

(1) انظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ج20، ص109-110، لاط، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، لات.

(2) انظر: العسكري، مرتضى: معالم المدرستين، ج2، ص13-15، لاط، بيروت، مؤسّسة النعمان، 1410هـ.ق/ 1990م.

(3) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص273؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، م.س، ج1، ص141.

(4) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص273.

(5) انظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص17.

(6) انظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص15-17.

10 مرّات⁽¹⁾. وأريد بها: تارة مجموعة من الآيات؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ...﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾⁽³⁾. وتارة أخرى مجموع الكتاب (أي ما بين الدفتين)، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾⁽⁴⁾. وقد تقدّم معنى القرآن لغة واصطلاحاً.

ب. الفرقان: وردت مفردة «فرقان» 6 مرّات في القرآن الكريم⁽⁵⁾. والفرقان من الفرق والتفرقة، ويُراد بها ما يفرق بين الحقّ والباطل⁽⁶⁾. وروي أنّه سُئِلَ الإمام الصادق عليه السلام عن القرآن والفرقان أهما شيئان أم شيء واحد؟ فقال عليه السلام: «القرآن جملة الكتاب، والفرقان الحكم الواجب العمل به»⁽⁷⁾.

ج. الذّكر: وردت مفردة «ذِكر» 52 مرّة في القرآن الكريم⁽⁸⁾، وأريد بها القرآن في بعض المواضع فقط؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾⁽⁹⁾، وقوله تعالى: ﴿... وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾⁽¹⁰⁾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾⁽¹¹⁾. ويُراد بالذّكر: الشرف⁽¹²⁾.

(1) روحاني، محمود: المعجم الإحصائي لألفاظ القرآن الكريم، ج3، ص1154، ط1، مشهد المقدّسة، مؤسّسة الأستانة الرضوية المقدّسة، 1372هـ/ق/1987م.

(2) سورة الإسراء، الآية 82.

(3) سورة الأعراف، الآية 204.

(4) سورة الإسراء، الآية 106.

(5) انظر: روحاني، المعجم الإحصائي لألفاظ القرآن الكريم، ج3، ص1082.

(6) انظر: ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، ص493-495، تحقيق عبد السلام هارون، لاط، لام، مكتب الإعلام الإسلامي، 1404هـ/ق، ج4، مادّة «فرق».

(7) الشيخ الكليني، الكافي، ص630، ج2.

(8) انظر: روحاني، المعجم الإحصائي لألفاظ القرآن الكريم، ج2، ص746.

(9) سورة الأنبياء، الآية 50.

(10) سورة النحل، الآية 44.

(11) سورة الزخرف، الآية 44.

(12) انظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص328، مادّة «ذِكر».

د. الكتاب: وردت مفردة «كتاب» 230 مرة في القرآن الكريم⁽¹⁾؛ كما في قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْثَرْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾⁽³⁾. والكتاب هو: جملة ما هو موجود بين الدفتين. وقد استعمل في القرآن الكريم وأريد به: تارة ما أنزل على الأنبياء والرسل عليهم السلام من كلام الله تعالى الموحى إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَبْحِثُ خُدَّ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾⁽⁵⁾، وقوله تعالى- على لسان نبيه عيسى عليه السلام -: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ...﴾⁽⁶⁾. وتارة استعمل الكتاب بمعنى خصوص المكتوب على نحو المراسلات والمخاطبات؛ كما في قوله تعالى- في معرض حكايته لقصة النبي سليمان عليه السلام وملكة سبأ-:

﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾⁽⁷⁾ قالت يَأْتِيهَا الْمَلَأُؤُا ٢٨ **إِنِّي أُلْقِي إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ** ⁽⁷⁾. وتارة استعمل بمعنى صحيفة أعمال الإنسان؛ كما في قوله تعالى: ﴿... مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا...﴾⁽⁸⁾، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾⁽⁹⁾ **١٣** **أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ⁽⁹⁾.

هـ. التنزيل⁽¹⁰⁾: وردت مفردة «تنزيل» 11 مرة في القرآن الكريم⁽¹¹⁾؛ كما في قوله تعالى:

(1) انظر: روحاني، المعجم الإحصائي لألفاظ القرآن الكريم، ج3، ص1211.

(2) سورة البقرة، الآية 2.

(3) سورة فاطر، الآية 32.

(4) سورة مريم، الآية 12.

(5) سورة الإسراء، الآية 2.

(6) سورة مريم، الآية 30.

(7) سورة النمل، الأيتان 28 و 29.

(8) سورة الكهف، الآية 49.

(9) سورة الإسراء، الأيتان 13 و 14.

(10) عدّه عبد العظيم الزرقاني من أسماء القرآن الكريم. انظر: الزرقاني، مناهل العرفان، ج1، ص15.

(11) انظر: روحاني، المعجم الإحصائي لألفاظ القرآن الكريم، ج2، ص584.

﴿وَأَنزَلْنَاهُ لِنَزِيلٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾⁽³⁾. ويُراد من التنزيل: القرآن النازل مفرقاً مرة بعد أخرى⁽⁴⁾.

و. المصحف: لم يرد ذكر هذه المفردة في القرآن الكريم، ولكن اشتهر تداولها بين المسلمين بعد رحيل الرسول الأكرم ﷺ؛ بوصفها اسماً من أسماء القرآن الكريم. ولعل اشتهار تداولها يعود إلى شدة انشغال المسلمين واهتمامهم بعد رحيل الرسول الأكرم ﷺ بكتابة القرآن وتدوينه وجمعه بين دفتين. و«الصَّحِيفَةُ: المَبْسُوطُ مِنَ الشَّيْءِ؛ كصَحِيفَةِ الْوَجْهِ، وَالصَّحِيفَةُ: التي يَكْتُبُ فِيهَا، وَجَمْعُهَا: صَحَائِفٌ وَصُحُفٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿صُحُفٍ إِبرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾⁽⁵⁾، ﴿بَلِّغُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾⁽⁶⁾، قِيلَ: أريد بها القرآن، وجعله صحفاً فيها كتب من أجل تضمّنه لزيادة ما في كتب الله المتقدّمة. وَالْمُصْحَفُ: ما جعل جامعاً لِلصُّحُفِ الْمَكْتُوبَةِ، وَجَمْعُهُ: مَصَاحِفٌ⁽⁷⁾. وتجدر الإشارة إلى أنّ الأسماء الثلاثة: الكتاب، الذِّكْر، الفرقان، هي أسماء مشتركة بين القرآن والكتب السماوية الأخرى. وأمّا اسم «القرآن» فهو الاسم الوحيد الذي اختصّ به كتاب رسالة الإسلام عن كتب باقي الرسالات السماوية. ويُعدّ من أشهر أسماء القرآن: القرآن، ثمّ الفرقان، ثمّ يأتي بعدهما في الشهرة ترتيباً: الكتاب، والذِّكْر، والتنزيل⁽⁸⁾.

أوصاف القرآن

ذكر الباحثون والمفسّرون عدّة صفات للقرآن الكريم، وتفاوتت تحديداتهم في هذا الصدد؛ تبعاً لاختلاف معاييرهم وأذواقهم في تحديد أسماء القرآن وتمييزها عن صفاته،

(1) سورة الشعراء، الآية 192.

(2) سورة فصلت، الآية 2.

(3) سورة يس، الآية 5.

(4) انظر: الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ص 799، مادة «نزل».

(5) سورة الأعلى، الآية 19.

(6) سورة البينة، الآيتان 2 و3.

(7) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ص 476، مادة «صحف».

(8) انظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 1، ص 17.

وأبرز هذه الصفات التي اقترنت بأسماء القرآن المشهورة - التي تقدم ذكرها - وجاءت وصفاً لها:

- أ. الحكيم: أي مستقر الحكمة. قال تعالى: ﴿ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴾ (1).
- ب. العزيز: أي عديم النظير، والمنيع، والممتنع من أن يُغلب. قال تعالى: ﴿ ... وَإِنَّهُ لَكِنْبٌ عَزِيزٌ ﴾ (2).
- ج. العظيم: أي الكبير والقوي. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (3).
- د. العربي: أي النازل بلغة العرب. قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (4).
- هـ. وغيرها صفات أخرى، من قبيل: البشير (5)، والشافي (6)، والقيم (7)، والكريم (8)، والمبارك (9)، واليمين (10)، والمتشابه (11)، والمثاني (12)، والمجيد (13)، والنذير (14)، وذو الذكر (15)، وغير ذي عوج (16)...

(1) سورة يس، الآية 2.
 (2) سورة فصلت، الآية 41.
 (3) سورة الحجر، الآية 87.
 (4) سورة يوسف، الآية 2.
 (5) قال تعالى: ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سورة فصلت، الآية 2).
 (6) قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ... ﴾ (سورة الإسراء، الآية 82).
 (7) قال تعالى: ﴿ ... أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ قَلِيلًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِمَنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ... ﴾ (سورة الكهف، الآيتان 2 و1).
 (8) قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (سورة الواقعة، الآية 77).
 (9) قال تعالى: ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (سورة الأنبياء، الآية 50).
 (10) قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾ (سورة الحج، الآية 16).
 (11) قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا... ﴾ (سورة الزمر، الآية 23).
 (12) قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ (سورة الزمر، الآية 23).
 (13) قال تعالى: ﴿ قَدْ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ﴾ (سورة ق، الآية 1).
 (14) قال تعالى: ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سورة فصلت، الآية 2).
 (15) قال تعالى: ﴿ صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴾ (سورة ص، الآية 1).
 (16) قال تعالى: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (سورة الزمر، الآية 28).

لغة القرآن

إن لغة القرآن هي اللغة العربية، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بعدة تعابير، من قبيل: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾⁽¹⁾، و﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾⁽²⁾ أو ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾⁽³⁾، و﴿حَكْمًا عَرَبِيًّا﴾⁽⁴⁾.

وأما اختيار اللغة العربية لتكون لغة القرآن الكريم؛ فيعود إلى نكات دقيقة، أبرزها التالي:

أ. جاء نزول القرآن باللغة العربية استناداً إلى أصل عامّ وسنة إلهية في الإنذار والتبشير،

مفادها: اتّحاد لغة كلّ رسول مع لغة قومه. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ

قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾⁽⁵⁾. وهذه القاعدة العامة في إرسال الرسل، تنطبق أيضاً على إنزال

الكتب السماوية. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...﴾⁽⁶⁾.

ومن هذا المنطلق، فإنّ نزول القرآن باللغة العربية أمر طبيعي موافق للسنة الإلهية

في الإنذار والتبشير. وهذا لا يتنافى مع رسالة الإسلام العالمية، ودعوته العامة على

مدى العصور والأجيال، ولا مع ما جاء به القرآن من هداية عامّة لكافة الناس، بقوله

تعالى: ﴿...هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ...﴾⁽⁷⁾. وأمّا إنذار الرسول

الأكرم ﷺ لأهل مكة، الذي ورد في سورة الشورى، فلم يكن إلاّ لأنه ﷺ كان في

المراحل الأولى من حركته العالمية، مكلفاً بدعوة قومه وهداية أبناء بيئته. ومن غير

المعقول أن يؤمّر ﷺ بإرشاد الناس وهدايتهم، ثمّ يعرض عليهم كتاباً بلغة غريبة عنهم.

ب. يرى علماء اللغة أنّ اللغة العربية تمتاز عن اللغات الأخرى بأنّها واسعة جداً، ولها

قدرة عالية على حكاية المفاهيم المعنوية العالية والسامية التي يطرحها القرآن،

أكثر من غيرها من اللغات الأخرى. تتميّز اللغة العربية عن اللغات الأخرى بكثرة

المضردات، واشتقاق الكلمات، ووفرة قواعدها، وفصاحتها، وبلاغتها...

(1) سورة يوسف، الآية 5؛ طه، الآية 113؛ الزمر، الآية 28؛ فصلّت، الآية 3؛ الشورى، الآية 7؛ الزخرف، الآية 3.

(2) سورة النمل، الآية 103.

(3) سورة الأحقاف، الآية 12.

(4) سورة الرعد، الآية 37.

(5) سورة إبراهيم، الآية 4.

(6) سورة الشورى، الآية 7.

(7) سورة البقرة، الآية 185.

وقد اختار الله تعالى اللغة العربية لتكون لغة للقرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾⁽¹⁾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾. وهاتان الآيتان تكشفان عن حقيقة أن إكساء القرآن باللغة العربية مُسند إلى الله تعالى، وهو الذي أنزل معنى القرآن ومحتواه بقلب اللفظ العربي؛ ليكون قابلاً للتعلُّق والتأمل. وفي الآية الواردة في سورة الزخرف يقول تعالى - بعد بيان أن لغة القرآن هي العربية -: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وفي ذلك دلالة ما على أن لألفاظ الكتاب العزيز من جهة تعيينها؛ بالاستناد إلى الوحي، وكونها عربية؛ دخلاً في ضبط أسرار الآيات وحقائق المعارف. ولو أنه تعالى أوحى إلى النبي ﷺ بمعناه، وكان اللفظ الحالي له هو لفظ النبي ﷺ؛ كما في الأحاديث القدسية - مثلاً -، أو تُرجم إلى لغة أخرى؛ لخفي بعض أسرار آياته البيّنات عن عقول الناس ولم تله عقولهم وأفهامهم⁽³⁾.

ج. أكد القرآن الكريم على صفة كونه بلسان عربي في وجه مَنْ زعموا أن هناك شخصاً يعلم الرسول ﷺ القرآن: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾⁽⁴⁾. ويُراد بـ ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾: أنه غير صحيح، فـ«الإعجام: الإبهام. والعجم خلاف العرب، والعجمي منسوب إليهم. والأعجم: مَنْ في لسانه عجمة، عربياً كان، أم غير عربي»⁽⁵⁾. وورد في حديث جاء جواباً عن معنى ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾: «يبين الألسن، ولا تُبينه الألسن»⁽⁶⁾.

ومن هنا، فالمراد بالعربية هو: بيان حقيقة أن اللغة العربية لغة الفصاحة والوضوح والخلو من التعقيد والإبهام، في مقابل الأعجمي المبهم وغير الواضح والمعقد، وقد اختارها الله تعالى ليبيّن بها معارف وحقائق راقية؛ بلغة فصيحة وبلغية.

(1) سورة يوسف، الآية 2.

(2) سورة الزخرف، الآية 3.

(3) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م، ص، ج 11، ص 75.

(4) سورة النحل، الآية 103.

(5) انظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 549، مادة «عجم».

(6) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 632.

المفاهيم الرئيسية

- تعددت الأقوال في تحديد معنى القرآن وأصله الاشتقاقي اللغوي. وأفواها وأصوبها أنه: اسم مهموز مصدر لقرأت؛ بمعنى التلاوة، سُمِّي به الكتاب المقروء.
- أبرز أسماء القرآن: القرآن، الفرقان، الذِّكْر، الكتاب، التنزيل، المصحف.
- حقيقة القرآن هي حقيقة إلهية تنطوي على أعمق المعارف المعنوية. وقد قضى الله تعالى أن يُلبسَ هذه الحقيقة لباس الألفاظ؛ ليتسنى للناس فهم القرآن.
- من أوصاف القرآن الكريم: البشير، الحكيم، الشافي، العربي، العزيز، العظيم، القيم، الكريم...
- إنَّ القرآن نزل بالعربية وذلك لأنَّ العربية لغة الفصاحة والوضوح والخلو من التعقيد والإبهام، في مقابل الأعجمي المبهم وغير الواضح والمعقّد، وقد اختارها الله تعالى ليبيّن بها معارف وحقائق راقية؛ بلغة فصيحة وبلغفة.

للمطالعة

قراءة القرآن والعمل به

وقد حذرت الأحاديث الشريفة بشدة من قارئ القرآن الذي لا يعمل به ولا يطبقه على نفسه، فعن رسول الله ﷺ أنه قال في حديث: «من تعلم القرآن فلم يعمل به وآثر عليه حب الدنيا وزينتها استوجب سخط الله وكان في الدرجة مع اليهود والنصارى الذين ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم، ومن قرأ القرآن وأراد به السمعة والوصول إلى الدنيا لقي الله ووجهه عظم لا لحم فيه وزجه القرآن على قفاه حتى يدخل النار ويسقط في النار مع الذين سقطوا، ومن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى فيقول ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَأَيُّهَا فَتَسِينُهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (1) فيؤمر به إلى النار، ومن قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وتفقهها في الدين كان له من الثواب مثل جميع ما يعطى الملائكة والأنبياء والمرسلون، ومن تعلم القرآن يريد رياء وسمعة ليُماري به السفهاء ويباهي به العلماء ويطلب به الدنيا بدد الله عز وجل عظامه يوم القيامة ولم يكن في النار أشد عذاباً منه وليس نوع من أنواع العذاب إلا ويُعذب من شدة غضب الله عليه وسخطه، ومن تعلم القرآن وتواضع في العلم وعلم عباد الله يريد ما عند الله لم يكن في الجنة أعظم ثواباً منه ولا أعظم منزلة منه ولم يكن في الجنة منزلة ولا درجة رفيعة ولا نفيضة إلا كان له فيها أوفر النصيب وأشرف المنازل» (2).

(1) سورة طه، الآيتان 125 و126.

(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص183.

الدرس السابع

الوحي

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يعرف معنى الوحي في اللغة والقرآن.
- 2 . يُعدّد أنحاء الوحي الرسالي.
- 3 . يتعرّف على أنحاء الوحي عند النبي محمد ﷺ.

الوحي في اللغة

الوحي - في اللغة - إعلام سريع خفي، سواء أكان بإيماءة أو همسة أو كتابة في سرّ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك في سرعة خاطفة حتّى فهمه فهو وحي.

قال تعالى عن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَخُذْ عَلَى يَمِينِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾⁽¹⁾. أي أشار إليهم على سبيل الرّمز والإيماء.

ولعلّ الخفاء في مفهوم الوحي جاء من قبل اعتبار السرعة فيه، فالإيماءة السريعة تخفى - طبعاً - على غير المومى إليه.

الوحي في القرآن

استعمله القرآن في معانٍ أربعة:

1. معناه اللغوي وهو إعلام سريع خفي، وقد ذكر في آية مريم.
2. تركيز غريزي فطري، وهو تكوين طبيعيّ مجعول في جيلة الأشياء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾⁽²⁾.

فهي تسلك وفق فطرتها وتستوحي من باطن غريزتها، مذللة لما أودع فيها من غريزة العمل المنتظم ومن ثمّ فهي لا تعدل عن تلك السبيل.

3. إلهام نفسي، وهو شعور في الباطن، يحسّ به الإنسان إحساساً يخفى عليه مصدره أحياناً، وأحياناً يلهم أنّه من الله وقد يكون من غيره تعالى.

(1) سورة مريم، الآية 11.

(2) سورة النحل، الآيتان 68 و 69.

ومن الإلهام الرحماني قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (1).
والتعبير بالوحي عن وسواس الشيطان جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُواكُمْ﴾ (2).

والتعبير بالوحي عما يلقيه الله إلى الملائكة من أمره ليفعلوه من فورهم جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (3).

4. الوحي الرسالي، وهو معنى رابع استعمله القرآن في أكثر من سبعين موضعاً معبراً عن القرآن أيضاً بأنه وحي ألقى على النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (4)، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (5).

أنحاء الوحي الرسالي

الوحي الرسالي يتحقق على أنحاء ثلاثة كما جاءت في الآية الكريمة:

﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ (6).

فالصورة الأولى: إلقاء في القلب ونفث في الروع.

والثانية: تكليم من وراء حجاب بخلق الصوت في الهواء بما يقرع مسامع النبي (7) ولا يرى شخص المتكلم.

(1) سورة القصص، الآية 7.

(2) سورة الأنعام، الآية 121.

(3) سورة الأنفال، الآية 12.

(4) سورة يوسف، الآية 3.

(5) سورة الشورى، الآية 7.

(6) سورة الشورى، الآية 51.

(7) لكن لا بهذه الأذن المادية ولا لسمعه الآخرون أيضاً بل بذلك السمع الذي يخص باطنه، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبًا﴾ (سورة البقرة، الآية 97).

والثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلغه إلى النبي، إمّا عياناً، أو لا يراه ولكن يستمع إلى رسالته. إذن فالفارق بين الوحي الرسالي وسائر الإحياءات المعروفة، هو جانب مصدره الغيبي اتصالاً بما وراء المادّة.

ملحوظة:

بما أنّ الوحي ظاهرة روحية فإنّه بأيّ أقسامه إنّما كان مهبطه قلبه الشريف، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾⁽¹⁾، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(١١٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾⁽²⁾، والقلب هو لبّ الشيء وحقيقته الأصلية.

قال السيّد الطباطبائي قدس سره: «هذا إشارة إلى كيفية تلقيه ﷺ القرآن النازل عليه وأنّ الذي كان يتلقاه من الرّوح هي نفسه الكريمة من غير مشاركة الحواسّ الظاهرة التي هي أدوات لإدراكات جزئية خارجية... فكان ﷺ يرى شخص الملك ويسمع صوت الوحي، لكن لا بهذه السمع والبصر الماديتين وإلاّ لكان أمراً مشتركاً بينه وبين غيره، ولم يكن يسمع أو يبصر هو دون غيره. فكان يأخذه برحاء الوحي وهو بين الناس فيوحي إليه ولا يشعر الآخرون الحاضرون...»⁽³⁾.

اللهم سوى ما ورد بشأن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، كان يرى ما يراه النبي ﷺ ويسمع ما يسمعه إلاّ أنّه ليس بنبي، وورد في بعض الروايات أنّ علياً عليه السلام كان يسمع ولا يرى. كما قال له الرسول ﷺ⁽⁴⁾.

أنحاء الوحي بالنسبة إلى نبيّنا محمّد ﷺ

هذه أنحاء الوحي بصورة إجمالية. أمّا بالنسبة إلى نبيّنا محمّد ﷺ فكان يأتيه الوحي تارة في المنام، وهذا - أكثرياً - كان في بدء نبوته. وأخرى وحيّاً مباشريّاً من جانب الله، بلا توسيط ملك. وثالثة مع توسيط جبرئيل عليه السلام. وإليك بعض التفصيل:

(1) سورة البقرة، الآية 97.

(2) سورة الشعراء، الأيتان 193 و 194.

(3) السيّد الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 15، ص 346. برحاء الوحي: شدّة ألمه والإحساس بكرهه.

(4) الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الخطبة القاصعة 192، صبحي الصالح.

1. الرؤيا الصادقة

كان أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة، كان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. روي عن الإمام الباقر ﷺ: «وَأَمَّا النَّبِيُّ فَهُوَ الَّذِي يَرَى فِي مَنَامِهِ، نَحْوَ رُؤْيَا إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَنَحْوِ مَا كَانَ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَسْبَابِ النَّبُوءَةِ قَبْلَ الْوَحْيِ، حَتَّى أَتَاهُ جِبْرَائِيلُ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِالرَّسَالَةِ...»⁽¹⁾.

قوله: «قبل الوحي» أي قبل الوحي الرسالي المأمور بتبليغه. لأن هذا البيان تفسير لمفهوم «النبي» قبل أن يكون رسولاً، وهو إنسان أوحى إليه من غير أن يكون مأموراً بتبليغه. فهو يتصل بالملأ الأعلى اتصالاً روحياً، وينكشف له الملكوت كما حصل لنبينا ﷺ قبيل بعثته المباركة.

ولكن لم يعهد نزول قرآن عليه في المنام، نعم ربما كانت بعض رؤاه أسباباً لنزول القرآن كما في قوله تعالى: **﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ...﴾**⁽²⁾.

فقد رأى النبي ﷺ ذلك عام الحديبية (سنة الست من الهجرة) وصدقت عام الفتح (سنة الثمان من الهجرة).

2. نزول جبرائيل

كان الملك الذي ينزل على النبي ﷺ بالوحي هو جبرائيل ﷺ، فكان يلقيه على مسامعه الشريفة، فتارة يراه، إما في صورته الأصلية أو في صورة أخرى. وهذا حصل مرتين. والمرتان كانت إحداهما في بدء الوحي بحراء. ظهر له جبرائيل في صورته الأصلية التي خلقه الله عليها، مائلاً أفق السماء من المشرق والمغرب، فتهيبه النبي ﷺ تهبياً بالغاً، فنزل عليه جبرائيل في صورة الأدميين فضمه إلى صدره، فكان لا ينزل عليه بعد ذلك إلا في صورة بشر جميل.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 176، ح 3. العلامة المجلسي، وبحار الأنوار: ج 18، ص 266، ح 27.

(2) سورة الفتح، الآية 27.

والثانية كانت باستدعائه ﷺ أن يريه نفسه مرة أخرى على صورته التي خلقه الله، فأراه صورته فسد الأفق فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ (1) كانت المرة الأولى، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (2) كانت المرة الثانية، على ما جاءت في الروايات (3).

ثم إن جبرائيل ﷺ إذا أتى النبي ﷺ لم يدخل حتى يستأذنه وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد كما جاء في رواية الإمام الصادق ﷺ (4).
أما نزول الملك عليه بالوحي من غير أن يراه فكثير أيضاً، إما إلقاءً على مسامعه وهو يصغي إليه أو إلهاماً في قلبه فيعيه بقوة.

3. ولعل أكثرية الوحي كان مباشراً لا يتوسطه ملك، على ما جاء في وصف الصحابة حالته ﷺ، ساعة نزول الوحي عليه.

قال الشيخ الصدوق: «إن النبي ﷺ كان يكون بين أصحابه فيغمى عليه وهو يتصاب عرقاً فإذا أفاق قال: قال الله كذا وكذا وأمركم بكذا ونهاكم عن كذا. قال: وكان يزعم أكثر مخالفينا أن ذلك كان عند نزول جبرائيل، فسئل الإمام الصادق ﷺ عن الغشية التي كانت تأخذ النبي ﷺ أكانت عند هبوط جبرائيل ﷺ؟ فقال: «لا. إن جبرائيل كان إذا أتى النبي ﷺ لم يدخل حتى يستأذنه، وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد. وإنما ذاك عند مخاطبة الله عز وجل إياه بغير ترجمان وواسطة» (5).

(1) سورة النجم، الآية 7.

(2) سورة النجم، الآية 13.

(3) الطبرسي، مجمع البيان: ج 9، ص 173 و 175 و ج 10، ص 446، وتفسير الصافي، ج 2، ص 618.

(4) الشيخ الصدوق، كمال الدين، ص 85.

(5) م.ن، ص 85، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 260.

المفاهيم الرئيسية

- الوحي - في اللغة - إعلام سريع خفي، سواء أكان بإيماءة أو همسة أو كتابة في سرّ
 - استعمل القرآن الوحي في معانٍ أربعة:
 - 1. معناه اللغوي وهو إعلام سريع خفي، وقد ذكر في آية مريم.
 - 2. تركيز غريزي فطري.
 - 3. إلهام نفسي.
 - 4. الوحي الرسالي.
 - الوحي الرسالي يتحقّق على أنحاء ثلاثة كما جاءت في الآية الكريمة:
- ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ
بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾
- فالصورة الأولى: إلقاء في القلب ونفث في الروح.
 - والثانية: تكليم من وراء حجاب بخلق الصوت في الهواء بما يقرع مسامع النبي ولا يرى شخص المتكلم.
 - والثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلغه إلى النبي.
 - النبي محمد ﷺ كان يأتيه الوحي تارة في المنام، وهذا - أكثرياً - كان في بدء نبوته. وأخرى وحياً مباشراً من جانب الله، بلا توسيط ملك. وثالثة مع توسيط جبرئيل ﷺ.

للمطالعة

التفكر في آيات الله

من آداب قراءة القرآن المهمة؛ التفكر. والمقصود من التفكر أن يبحث في الآيات الشريفة عن المقصد والمقصود من كل آية. وأحسن التعبير فيه ما قاله الخواجة عبد الله الأنصاري حيث عرف التفكر بأنه: «تلمس البصيرة لاستدراك البغية»⁽¹⁾، يعني أن التفكر هو التجسس والبحث بواسطة نور البصيرة⁽²⁾ للوصول إلى المقصد والمقصود من كل آية شريفة. ومن المعلوم أن المقصد الأساس من وراء القرآن ومن وراء كل آية فيه هو الوصول إلى السعادة المطلقة التي تحصل بالكمال العلمي والعملية.

الهدف من التفكر

من مقاصد القرآن الكريم كما تبين هذه الصحيفة النورانية هو الهداية إلى سبل السلام والخروج من جميع مراتب الظلمات إلى عالم النور، والهداية إلى الطريق المستقيم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣﴾﴾⁽³⁾، وتحصيل هذه الهداية ومراتب السلامة تبدأ من المرتبة الدانية الرجعة إلى قوى الإنسان الحسية إلى منتهى النهاية، وهي الوصول إلى مقام القلب السليم، الذي على ما ورد ذكره عن أهل البيت عليهم السلام أن حقيقته أن يلاقي الإنسان الحق وليس في قلبه غيره عز وجل⁽⁴⁾. وتحصيل هذه الهداية غير ممكن إلا من خلال التفكر. فتكون سلامة القوى الحسية والمعنوية ضالة قارئ القرآن، فإنها موجودة في هذا الكتاب السماوي ولا بد أن يستخرجها بالتفكر. وإذا صارت قوى الإنسان الحسية والمعنوية سالمة من التصرف الشيطاني وسلك طرق السلامة وعمل بها، فإنه في كل مرتبة من السلامة

(1) عبد الله الأنصاري، منازل السائرين، مؤسسة دار العلم، مطبعة القدس - قم، ط 1، 1417هـ، باب التفكر.

(2) وهي بصر القلب لا بصر العين.

(3) سورة المائدة، الآيتان 15 و 16.

(4) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَنَ أَقْبَلَهُ يَلْقَى رَبَّهُ﴾ (سورة الشعراء، الآية 89) قال:

«القلب السليم الذي يلقي ربه وليس فيه أحد سواه». العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 67، ص 239.

تحصل له ينجو من الظلمة ويتجلى فيه النور الإلهي الساطع قهراً، حتى إذا خلاص من جميع أنواع الظلمات التي أولها ظلمات عالم الطبيعة بجميع شؤونها وآخرها ظلمة التوجه إلى غير الحق عز وجل، يتجلى النور المطلق في قلبه ويهديه إلى طريق الإنسانية المستقيم وهو في هذا المقام طريق الرب: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁽¹⁾.

(1) سورة هود، الآية 56.

الدرس الثامن

تاريخ القرآن

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يفهم معنى النزول ويُعدّد الأقوال فيه.
- 2 . يعرف أول وآخر ما نزل من القرآن.
- 3 . يشرح الفروق بين المكي والمدني.

مقدمة

هناك مسألة ذات أهمية تمس جانب نزول الوحي قرآناً، وارتباطه مع بدء الرسالة، حيث اقترنت البعثة. وكانت في شهر رجب. بنزول شيء من القرآن (خمس آيات من أول سورة العلق) في حين تصريح القرآن بنزوله في ليلة القدر من شهر رمضان فما وجه التوفيق؟ وهكذا تعيين المدة التي نزل القرآن خلالها تدريجاً، والسور التي نزلت قبل الهجرة لتكون مكّية. اصطلاحاً. والتي نزلت بعدها لتكون مدنيّة.

معنى النزول

النون والنزاء واللام كلمة صحيحة تدلّ على هبوط شيء ووقوعه... والتنزيل ترتيب الشيء ووضعه منزله⁽¹⁾. والفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن والملائكة: أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرقاً، ومرّة بعد أخرى، والإنزال عام، فمما ذكر فيه التنزيل قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ ...﴾⁽²⁾... ومما ذكر فيه الإنزال وأريد به الدفعة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾⁽³⁾ (4).

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص 417، ج 5، مادة «نزل».

(2) سورة الشعراء، الآيتان 193 و 194.

(3) سورة القدر، الآية 1.

(4) الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 799 – 800، مادة «نزل».

الأقوال في نزول القرآن

ذُكر في نزول القرآن عدة أقوال⁽¹⁾، أبرزها:

أ. **القول الأول:** وهو قول المشهور من العلماء والمفسرين، ومفاده: أن القرآن نزل إلى

السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً مدة إقامة النبي ﷺ بمكة بعد البعثة، فعن ابن عباس أنه قال: «أُنزِلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَكَانَ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَكَانَ اللَّهُ يُنزِلُهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضُهُ فِي إِثْرِ بَعْضٍ»⁽²⁾.

وقد تعرضت مجموعة من الروايات لنزول القرآن إلى السماء الدنيا، فأشار بعضها لنزول القرآن إلى السماء الرابعة، وبعضها الآخر لنزوله إلى البيت المعمور أو إلى بيت العزة وهو في السماء الرابعة. ولكنها لم توضح حقيقة المراد من السماء الدنيا أو السماء الرابعة أو البيت المعمور أو بيت العزة⁽³⁾.

ب. **القول الثاني:** نزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ما قدر الله إنزاله في هذه السنة، ثم نزل بعد ذلك منجماً طيلة السنة. وهكذا كل سنة حتى رحيله ﷺ.

ج. **القول الثالث:** ابتداء إنزاله في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة حتى رحيله ﷺ.

د. **القول الرابع:** أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأن الحفظة نجمته على

جبريل في عشرين ليلة، وأن جبريل نجمه على النبي ﷺ في عشرين سنة، فعن ابن عباس قال: «نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ اللُّوحِ المَحْفُوظِ إِلَى السَّفْرَةِ الكَرَامِ الكَاتِبِينَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَنَجَّمْتَهُ السَّفْرَةُ عَلَى جِبْرِيلَ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَنَجَّمَهُ جِبْرِيلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِشْرِينَ سَنَةً»⁽⁴⁾.

(1) الأقوال الأربعة الأولى ذكرها السيوطي في كتابه الإقتان. انظر: السيوطي، الإقتان، ج 1، ص 146-149. والقول الرابع ذكره

العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان. انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 2، ص 15-18.

(2) النيسابوري، أبو عبد الله: المستدرک على الصحيحين، ج 2، ص 530، إشراف يوسف عبد الرحمن المرعشلي، لاه، لام، لان، لات، ج 2، تفسير سورة إنا أنزلناه.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 628-629: النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 2، ص 222.

(4) السيوطي، الإقتان في علوم القرآن، ج 1، ص 119.

هـ. القول الخامس: التفريق بين الإنزال والتنزيل: وهو ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي رحمته الله، حيث أفاد: «أن الإنزال دفعي والتنزيل تدريجي... فقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتَبٍ وَزَلَّناهُ نَزِيلًا﴾⁽¹⁾، ظاهر في نزوله تدريجاً في مجموع مدة الدعوة؛ وهي ثلاث وعشرون سنة تقريباً، والمتواتر من التاريخ يدل على ذلك، ولذلك ربما استشكل عليه بالتناهي «مع آيات أخرى يستفاد من مجموعها نزول القرآن في ليلة القدر». والذي يُعطيه التدبر في آيات الكتاب... أن الآيات الناطقة بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليلة منه إنما عبّرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدال على الدفعة دون التنزيل؛ كقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبْرَكَةِ...﴾⁽³⁾، وقوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾⁽⁴⁾... وبالجمله، فإن المتدبر في الآيات القرآنية لا يجد مناصاً عن الاعتراف بدلائنها على كون هذا القرآن المنزل على النبي رحمته الله تدريجاً متكئاً على حقيقة متعالية عن أن تُدركها أبصار عقول العامة أو تتناولها أيدي الأفكار المتلوثة بألوات الهوسات وقذارات المادّة، وأن تلك الحقيقة أنزلت على النبي رحمته الله إنزالاً، فعلمه الله بذلك حقيقة ما عناه بكتابه⁽⁵⁾.

فوائد النزول التدريجي

إن نزول القرآن منجماً طيلة مدة البعثة النبوية الشريفة يحمل في طياته فوائد وآثاراً بالغة الأهمية؛ ما كانت لتترتب لو نزل دفعة واحدة فقط. ومن هذه الفوائد والآثار:

أ. رد القرآن على اعتراض الكفار على النبي رحمته الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾⁽⁶⁾.

(1) سورة الإسراء، الآية 106.

(2) سورة البقرة، الآية 185.

(3) سورة الدخان، الآية 3.

(4) سورة القدر، الآية 1.

(5) السيد الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج2، ص15-18.

(6) سورة الفرقان، الآية 32.

- ب. في النزول التدريجي تثبيت للنبي ﷺ ومواساة لقلبه الشريف، وكذلك للمؤمنين من باب أولى، قال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (1).
- ج. إن نزول المعارف الدينية بشكل تدريجي تتيح للناس أن ينظموا شؤون حياتهم الفردية والاجتماعية وفقاً له، ويصلوا من خلال ذلك إلى مرحلة الكمال. وهذا من أفضل أساليب التعليم والتربية، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ (2).
- د. أتاح النزول التدريجي الفرصة للصحابة لكي يحفظوا آياته بسهولة. وهذا ما أدى إلى المساهمة في تفويت الفرصة على أعداء الدين الذين أعدوا العدة لتحريف القرآن وإطفاء نور الهداية الإلهية.

أول ما نزل من القرآن

ما هي أول آية أو سورة نزلت من القرآن؟
 فإن كانت هي سورة العلق أو آياً منها فلم سميت سورة الحمد بفاتحة الكتاب؟ إذ ليس المعنى أنها كتبت في بدء المصاحف لأن هذا الترتيب شيء حصل بعد وفاة النبي ﷺ أو لا أقل في عهد متأخر من حياته - فرضاً - في حين أنها كانت تسمى بفاتحة الكتاب منذ بداية نزولها كما يشير إليه قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» (3).

والأقوال في ذلك ثلاثة:

1. سورة العلق

في تفسير الإمام عجلت علائمه: «هبط إليه جبرائيل وأخذ بضبعه وهزه، فقال: يا محمد! اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال: يا محمد! ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (1) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (2) ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (3) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (4) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (4) (5).

(1) سورة يس، الآية 76.

(2) سورة الإسراء، الآية 106.

(3) ابن أبي جمهور الأحسائي، عوالي اللئالي، تحقيق آقا مجتبی العراقي، مطبعة سيد الشهداء - قم، ط 1، 1983 م.

(4) سورة العلق، الآيات 1 - 5.

(5) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 206.

2. سورة المدثر

روي عن ابن سلمة، قال: سألت جابر بن عبد الله الأنصاري: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (١). قلت: أو ﴿أَفْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾؟ أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ: «إني جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى نزلت فاستنبطت الوادي، فنظرت أمامي وخليتي وعن يميني وشمالي. ولعلّه سمع هاتفاً. ثم نظرت إلى السماء فإذا هو. يعني جبرائيل. فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثروني، فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (١) ﴿قُرْآنَ ذَرِّ﴾ (١) (2). ولعلّ جابراً اجتهد من نفسه أنها أول سورة نزلت، إذ ليس في كلام رسول الله ﷺ دلالة على ذلك والأرجح أنّ ما ذكره جابر كان بعد فترة انقطاع الوحي فظنّه جابر بدء الوحي (3). حيث روى جابر حديث فترة انقطاع الوحي أيضاً: قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة انقطاع الوحي، قال: «فبينما أنا أمشي إذ سمعت هاتفاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض، فجتت منه فرقا، أي فزعت. فرفعت. فقلت: زملوني زملوني فدثروني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (١) ﴿قُرْآنَ ذَرِّ﴾ (٢) ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ﴾ (٣) ﴿وَيُنَادِكُ فَظَاهِرُ﴾ (٤) ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُ﴾ (٤). وهي الأوثان. قال ﷺ: ثم تتابع الوحي» (5).

3. سورة الفاتحة

قال الزمخشري: أكثر المفسرين على أنّ الفاتحة أول ما نزل (6). وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «سألت النبي ﷺ عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فأول ما نزل عليه بمكة: فاتحة الكتاب، ثم: ﴿أَفْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾، ثم: ﴿بِتِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١)» (7).

(1) سورة المدثر، الآيات 1 و 2.

(2) محمد بن مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج 1، ص 99، نشر دار الفكر - لبنان، باب الإسراء برسول الله ﷺ.

(3) الزركشي، البرهان، ج 1، ص 206، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1957م.

(4) سورة المدثر، الآيات 1 - 5.

(5) صحيح مسلم، ج 1، ص 98.

(6) الزمخشري، الكشاف، ج 4، ص 775، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1966م.

(7) الطبرسي، مجمع البيان، ج 10، ص 405.

ولا شك أنّ النبي ﷺ كان يُصليّ منذ بعثته، وكان يُصليّ معه عليّ وجعفر وزيد بن حارثة وخديجة⁽¹⁾ فقد ورد في الأثر: أوّل ما بدأ به جبرائيل أن علّمه الوضوء والصلاة⁽²⁾، فلا بدّ أنّ سورة الفاتحة كانت مقرونة بالبعثة.

وبعد... فلا نرى تناقياً جوهرياً بين الأقوال الثلاثة نظراً لأنّ الآيات الثلاث أو الخمس من أوّل سورة العلق إنّما نزلت تبشيراً بنبوّته ﷺ وهذا إجماع أهل الملة. ثمّ بعد فترة جاءته آيات. أيضاً. من أوّل سورة المدثر كما جاء في حديث جابر ثانياً. أمّا سورة الفاتحة فهي أوّل سورة نزلت بصورة كاملة وبسمة كونها سورة من القرآن كتاباً سماوياً للمسلمين.

ومن هنا صحّ التعبير عن سورة الحمد بسورة الفاتحة أي أوّل سورة كاملة نزلت بهذه السمة الخاصّة.

آخر ما نزل من القرآن

هناك أقوال:

1. سورة النصر

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «وآخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾»⁽³⁾،⁽⁴⁾.

2. سورة براءة

روي أنّها آخر سورة نزلت. نزلت في السنة التاسعة بعد عام الفتح عند مرجعه ﷺ من غزوة تبوك، نزلت آيات من أولها فبعث بها النبي مع عليّ عليه السلام ليقراها على ملأ من المشركين⁽⁵⁾.

3. روي أنّ آخر آية نزلت هي آية: ﴿وَأَنْتُمْ أَيُّومًا تَرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ

(1) التمي علي بن إبراهيم، تفسير علي بن إبراهيم القمي، ص 353.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 184، ح 14 وص 194، ح 30.

(3) سورة النصر، الآية 1.

(4) السيد هاشم البحراني، تفسير البرهان، ج 1، ص 29.

(5) م.ن، ج 1، ص 680.

مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْمَرُونَ ﴿1﴾ نزل بها جبرائيل، وقال: وضعها في رأس المأتين والثمانين من سورة البقرة، وعاش الرسول ﷺ أحداً وعشرين يوماً، وقيل: سبعة أيام⁽²⁾.

4. روي أن آخر آية نزلت هي آية: **«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴿3﴾.

قال اليعقوبي: كان نزولها يوم النص على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بغدير خم⁽⁴⁾.

الجمع بين الأقوال:

لا شك أن سورة النصر نزلت قبل براءة لأنها كانت بشارة بالفتح أو بمكة عام الفتح⁽⁵⁾ وبراءة نزلت بعد الفتح بسنة.

فطريق الجمع بين هذه الروايات: أن آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النصر، فقال عليه السلام: أما إن نفسي نعتت إلي. وآخر سورة نزلت باعتبار مفتحتها هي سورة براءة. وأما آية **«وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...»** فإن صح أنها نزلت بمنى يوم النحر في حجة الوداع. كما جاء في رواية الماوردي⁽⁶⁾. فأخر آية نزلت هي آية الإكمال. كما ذكرها اليعقوبي. لأنها نزلت في مرجعه عليه السلام من حجة الوداع في الثامن عشر من ذي الحجة. وإلا فلو صح أن النبي عليه السلام عاش بعد آية: **«وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...»** أحداً وعشرين يوماً أو سبعة أيام، فهذه هي آخر آية نزلت عليه عليه السلام.

والأرجح ما ذهب إليه اليعقوبي، نظراً لأنها آية الإعلام بكمال الدين، فكانت إنذاراً بانتهاء الوحي عليه عليه السلام بالبلاغ والأداء. فلعل تلك الآية كانت آخر آيات الأحكام، وهذه آخر آيات الوحي إطلافاً.

(1) سورة البقرة، الآية 281.

(2) السيد عبد الله شبر، تفسير شبر، ص 83.

(3) سورة المائدة، الآية 3.

(4) أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 35.

(5) أسباب النزول بهامش الجلالين، ج 2، ص 165.

(6) الزركشي، البرهان، ج 1، ص 187.

المكي والمدني

لمعرفة المكي والمدني فائدة كبيرة تمس جوانب أسباب النزول وتمد المفسر والفقير في تعيين اتجاه الآية وفي مجال معرفة النسخ من المنسوخ، والخاص من العام، والقيّد من الإطلاق، وما أشبهه، وفي تعيين المكي والمدني ثلاث نظريات:

الأولى: ما نزل قبل الهجرة أو في أثناء الطريق قبل وصوله إلى المدينة فهو مكي وما نزل بعد ذلك ولو في غير المدينة حتى ولو نزل في مكة عام الفتح أو في حجة الوداع فهو مدني. الثانية: ما نزل بمكة وحواليها. ولو بعد الهجرة. فهو مكي، وما نزل بالمدينة وحواليها فهو مدني وما نزل خارجاً عنهما فهو لا مكي ولا مدني.

الثالثة: كل شيء نزل فيها ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ فهو بمكة وكل شيء نزل فيه ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو بالمدينة⁽¹⁾.

قال الزركشي: لأنّ الغالب على أهل مكة الكفر، والغالب على أهل المدينة الإيمان⁽²⁾. والمشهور الذي جرى عليه أكثرية أهل القلم هو الاصطلاح الأول⁽³⁾. وكان التحديد الآتي في نظم السور حسب ترتيب نزولها معتمداً على هذا الاصطلاح.

ترتيب النزول

اعتمدنا في هذا العرض على عدة روايات متفق عليها وثق بها العلماء أكثرها وعمدتها رواية ابن عباس بطرق وأسانيد اعترف بها أئمة الفن⁽⁴⁾.

والنظر في هذا العرض كان إلى مفتاح السور، فالسورة إذا نزلت من أولها بضع آيات، ثم نزلت أخرى، وبعدها اكتملت الأولى، كانت الأولى متقدمة على الثانية في ترتيب النزول، حسب هذا الاصطلاح، لكن هذا التحديد لم يكن متفقاً عليه عند الجميع.

وقد وضعنا في صفحة المطالعة لهذا الدرس قائمة السور المكية، وعددها: ستّ وثمانون سورة، متقدمة على السور المدنية، وعددها: ثمان وعشرون سورة، مع غضّ النظر عن السور المختلف فيها.

(1) الزركشي، البرهان، ج 1، ص 190.

(2) م.ن، ج 1، ص 187.

(3) راجع البرهان: ج 1، ص 187.

(4) الطبرسي، مجمع البيان، ج 10، ص 405-406.

المفاهيم الرئيسية

- التنزيل يدلّ على هبوط شيء ووقوعه... والتنزيل ترتيب الشيء ووضعه منزله.
- ذكّر في نزول القرآن عدّة أقوال، أبرزها:
 - الأول: أنّ القرآن نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً مدّة إقامة النبي ﷺ بمكة بعد البعثة.
 - الثاني: أنّ القرآن نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً مدّة إقامة النبي ﷺ بمكة بعد البعثة.
 - الثالث: ابتداء إنزاله في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً في أوقات مختلفة حتى رحيله ﷺ.
 - الرابع: أنّه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأنّ الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة، وأنّ جبريل نجمه على النبي ﷺ في عشرين سنة.
 - الخامس: التفريق بين الإنزال والتنزيل: وهو ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي قدس سره، حيث أفاد: أنّ الإنزال دفعي والتنزيل تدريجي.
- وفي تعيين المكي والمدنيّ ثلاث نظريات:
 - الأولى: ما نزل قبل الهجرة أو في أثناء الطريق قبل وصوله إلى المدينة فهو مكي وما نزل بعد ذلك ولو في غير المدينة.
 - الثانية: ما نزل بمكة وحواليها. ولو بعد الهجرة. فهو مكي، وما نزل بالمدينة وحواليها فهو مدنيّ وما نزل خارجاً عنهما فهو لا مكي ولا مدنيّ.
 - الثالثة: كلّ شيء نزل فيها ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ فهو بمكة وكلّ شيء نزل فيه ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهو بالمدينة.

للمطالعة

ترتيب المصحف	السورة	ترتيب النزول
53	النجم	23
80	عبس	24
97	القدر	25
91	الشمس	26
85	البروج	27
95	التين	28
106	قريش	29
101	القارعة	30
75	القيامة	31
104	الهمزة	32
77	المرسلات	33
50	ق	34
90	البلد	35
86	الطارق	36
54	القمر	37
38	ص	38
7	الأعراف	39
72	الجن	40
36	يس	41
25	الفرقان	42
35	فاطر	43

ترتيب المصحف	السورة	ترتيب النزول
96	العلق	1
68	القلم	2
73	المزمل	3
74	المدثر	4
1	الفاتحة ⁽¹⁾	5
111	المسد	6
81	التكوير	7
87	الأعلى	8
92	الليل	9
89	الفجر	10
93	الضحى	11
94	الشرح	12
103	العصر	13
100	العاديات	14
108	الكوثر	15
102	التكاثر	16
107	الماعون	17
109	الكافرون	18
105	الفيل	19
114	الناس	21
112	التوحيد	22

(1) سقطت الفاتحة من رواية ابن عباس، فأثبتناها على رواية جابر بن زيد: السيوطي، الإتيقان، ج 1، ص 25 وعلى نص تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 26.

ترتيب المصحف	السورة	ترتيب النزول
18	الكهف	69
16	النحل	70
71	نوح	71
14	إبراهيم	72
21	الأنبياء	73
23	المؤمنون	74
32	السجدة	75
52	الطور	76
67	الملك	77
69	الحاقة	78
70	المعارج	79
78	النبأ	80
79	النازعات	81
82	الانفطار	82
84	الانشقاق	83
30	الروم	84
29	العنكبوت	85
83	المطففين	86
2	البقرة	87
8	الأنفال	88
3	آل عمران	89
33	الأحزاب	90
60	الممتحنة	91
4	النساء	92
99	الزلزال	93

ترتيب المصحف	السورة	ترتيب النزول
19	مريم	44
20	طه	45
56	الواقعة	46
26	الشعراء	47
27	النمل	48
28	القصص	49
17	الإسراء	50
10	يونس	51
11	هود	52
12	يوسف	53
15	الحجر	54
6	الأنعام	55
37	الضافات	56
31	لقمان	57
34	سبأ	58
39	الزمر	59
40	غافر	60
41	فصلت	61
42	الشورى	62
43	الزخرف	63
44	الدخان	64
45	الجاثية	65
46	الأحقاف	66
51	الذاريات	67
88	الغاشية	68

ترتيب المصحف	السورة	ترتيب النزول
63	المنافقون	105
58	المجادلة	106
49	الحجرات	107
66	التحريم	108
62	الجمعة	109
64	التغابن	110
61	الصف ⁽¹⁾	111
48	الفتح	112
5	المائدة ⁽²⁾	113
9	براءة	114

ترتيب المصحف	السورة	ترتيب النزول
57	الحديد	94
47	محمد	95
13	الرعد	96
55	الرحمان	97
76	الإنسان	98
65	الطلاق	99
98	البينة	100
59	الحشر	101
110	النصر	102
24	النور	103
22	الحجّ	104

(1) جعل الزركشي في البرهان سورة الصف بعد التحريم وقبل الجمعة.

(2) قدّم الزركشي براءة على المائدة وجعل هذا الأخير آخر السور.

الدرس التاسع

ترتيب القرآن

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يفهم قضية نظم كلمات القرآن.
- 2 . يعرف كيفية تأليف آيات القرآن على الترتيب الموجود.
- 3 . يستعرض أدلة جمع الإمام علي عليه السلام للقرآن.

مقدّمة

ترتيب القرآن في شكله الحاضر، في نظم آياته وترتيب سورته، وكذلك في تشكيله وتنقيطه وتفصيله إلى أجزاء ومقاطع، لم يكن وليد عامل واحد، ولم يكتمل في فترة الوحي الأولى. فقد مرّت عليه أدوار وأطوار، ابتدأت بالعهد الرسالي، وانتهت بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان، ثم إلى عهد الخليل بن أحمد النحويّ الذي أكمل تشكيله بالوضع الموجود. والمهمّ الآن هو العناية بدراسة القرآن من زاوية جمعه وتأليفه مصحفاً بين دفتين والبحث عن الفترة التي حصل فيها هذا الجمع والتأليف وعن العوامل التي لعبت هذا الدور الخطير

والبحث الحاضر يكتمل في ثلاث مراحل أساس:
أولاً: نظم كلماته بصورة جمل وتراكيب كلامية ضمن الآيات.
ثانياً: ترتيب آياته ضمن السور.
ثالثاً: ترتيب السور بين دفتين على صورة مصحف كامل.

نظم كلماته

لا شك أنّ نظم الكلمات والجمل والتعابير في القرآن، كلّها بفعله تعالى، لم يحدث فيها أيّ تغيير أو تبديل، لا بزيادة ولا بنقص ولا بتغيير موضعي أصلاً. ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾⁽¹⁾، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِطُونَ﴾⁽²⁾.

(1) سورة فصلت، الآية 42.

(2) سورة الحجر، الآية 9.

ولمزيد التوضيح نقول:

أولاً: إسناد الكلام إلى متكلم خاص يستدعي أن يكون هو العامل في تنظيم كلماته وتنسيق أسلوبه التعبيري الخاص. وبما أن القرآن المجيد هو كلام الله العزيز الحميد، فلا بد أن يكون الوحي هو العامل الوحيد في تنظيم كلماته جملاً وتراكيب كلامية بديعة.

ثانياً: كان أحد أوجه إعجاز القرآن كامناً وراء هذا النظم البديع. وقد تحدّى القرآن فصحاء العرب وأرباب البيان - بصورة عامة - لويأتون بمثل هذا القرآن و﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً﴾⁽¹⁾. وتجويز إمكان تدخل يد بشرية في نظم القرآن، كان بمعنى إبطال هذا التحدي الصارخ.

ثالثاً: اتّفاق كلمة الأمة في جميع أدوار التاريخ على أن النظم الموجود في الآيات الكريمة هو من صنع الوحي السماوي. الأمر الذي التزم به جميع الطوائف الإسلامية، على مختلف آرائهم في سائر المواضيع.

تأليف آياته

تأليف الآيات ضمن كل سورة، على الترتيب الموجود، فهذا قد تحقّق - في الأكثر - وفق ترتيب نزولها: كانت السور تبدأ بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فتسجّل الآيات التي تنزل بعدها من نفس هذه السورة، واحدة أخرى تدريجياً حسب النزول، حتى تنزل بسملة أخرى، فيعرف أن السورة قد انتهت وابتدأت سورة أخرى.

قال الإمام الصادق عليه السلام: كان يعرف انقضاء السورة بنزول ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ابتداءً لأخرى⁽²⁾.

وهناك عامل آخر عمل في نظم قسم من الآيات على خلاف ترتيب نزولها، وذلك بنص من رسول الله ﷺ وتعيينه الخاص. كان يأمر - أحياناً - بوضع آية في موضع خاص من سورة سابقة كانت قد ختمت من قبل.

(1) سورة الإسراء، الآية 88.

(2) العياشي، تفسير العياشي، ج 1، ص 19، ح 5.

روي أنّ آخر آية نزلت، قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾⁽¹⁾ فأشار جبرئيل أن توضع بين آيتي الربا والدين من سورة البقرة⁽²⁾.
وربّما كانت السور تفتح، وقبل أن تكتمل، تفتح سورة أخرى وتكتمل هذه الأخيرة قبل أن تكتمل الأولى. وذلك كان بأمر النبي ﷺ وبإشارته، كما في سورة البقرة، هي أول سورة ابتدأ نزولها بالمدينة بعد الهجرة، لكنّها استمرّ نزولها سنوات حتّى إلى ما بعد سنة السّت، إذ فيها الكثير من الآيات نزلن في هذه الفترات المتأخّرة، منها: آية ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ سَعَاءِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾⁽³⁾. إنّها نزلت عندما تحرّج المسلمون من السعي بين الصفا والمروة لمكان أساف وناثلة عليهما، وكان المشركون وضعوهما على الجبلين يطوفون بهما ويلمسونهما. فنزلت الآية دفعا لتوهم الحظر. الأمر الذي يستدعي نزولها بعد صلح الحديبية في عمرة القضاء⁽⁴⁾ وهو عام السّت من الهجرة. أو لعلّ النبي ﷺ أمر بوضع الآية في هذا الموضع من السورة. والله العالم.
وهكذا نزلت آيات الحجّ في نفس العام وتثبتّ في هذه السورة بالذات!

ترتيب سوره

انقضى العهد النبويّ والقرآن منثور على العسب واللخاف والرقاع وقطع الأديم⁽⁵⁾ وعظام الأكتاف والأضلاع وبعض الحرير والقراطيس وفي صدور الرجال.
كانت السور مكتملة على عهده ﷺ مرتبة آياتها وأسمائها، غير أنّ جمعها بين دفتين لم يكن حصل بعد، نظراً لترقب نزول قرآن على عهده ﷺ فما دام لم ينقطع الوحي لم يصحّ تأليف السور مصحفاً إلاّ بعد الاكتمال وانقطاع الوحي، الأمر الذي لم يكن يتحقّق إلاّ بانقضاء عهد النبوة واكتمال الوحي.

(1) سورة البقرة، الآية 281.

(2) السيوطي، الإتيان، ج 1، ص 62.

(3) سورة البقرة، الآية 158.

(4) روي ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام، راجع: تفسير العياشي: ج 1، ص 70، وص 133.

(5) العسيب: جريدة التخل إذا كشطت خوصها. واللخف: حجارة بيض رقاق. والأديم: الجلد المدبوغ.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: يا علي! القرآن خلف فراشي في الصحف والحريير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه»⁽¹⁾.
وأول من قام بجمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة وبوصية منه ﷺ هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ثم قام بجمعه زيد بن ثابت بأمر من أبي بكر، كما قام بجمعه كل من ابن مسعود وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري وغيرهم، حتى انتهى الأمر إلى دور عثمان فقام بتوحيد المصاحف وإرسال نسخ موحدة إلى أطراف البلاد وحمل الناس على قراءتها وترك سواها، على ما سنذكر.

جمع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

أول من تصدى لجمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة وبوصية منه هو علي بن أبي طالب عليه السلام قعد في بيته مشتغلاً بجمع القرآن وترتيبه على ما نزل، مع شروح وتفسير لمواضع مبهمة من الآيات، وبيان أسباب النزول ومواقع النزول بتفصيل.
قال عليه السلام: «ما نزلت آية على رسول الله ﷺ إلا أقرأنيها وأملاها علي فأكتبها بخطي. وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها. ودعا الله لي أن أعلمني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه علي فكتبت منه دعا لي ما دعا»⁽²⁾.

وبعث القوم إليه ليبايع فاعتذر باشتغاله بجمع القرآن، فسكتوا عنه أياماً حتى جمعه في ثوب واحد وختمه ثم خرج إلى الناس وهم مجتمعون حول أبي بكر في المسجد وخاطبهم قائلاً: «إني لم أزل منذ قبض رسول الله ﷺ مشغولاً بغسله وتجهيزه ثم بالقرآن حتى جمعتُه كله في هذا الثوب الواحد ولم ينزل الله على نبيه آية من القرآن إلا وقد جمعتها، وليس منه آية وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلمني تأويلها، أن تقولوا غداً: إنا كنا عن هذا غافلين»⁽³⁾!.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 92، ص 48، ح 7 عن تفسير علي بن إبراهيم.

(2) الزركسي، تفسير البرهان، ج 1، ص 16، ح 14.

(3) الطبرسي، الاحتجاج، ص 82.

وفي عهد عثمان حيث اختلفت المصاحف وأثارت ضجة بين المسلمين، قال طلحة للإمام عليه السلام: وما يمنعك - يرحمك الله - أن تخرج كتاب الله إلى الناس؟! فكف عليه السلام عن الجواب أولاً، فكرر طلحة السؤال، فقال: لا أراك يا أبا الحسن أجبتني عما سألتك من أمر القرآن ألا تظهره للناس؟

قال عليه السلام: «يا طلحة عمداً كفتُ عن جوابك. فأخبرني عما كتبه القوم أقرآن كله أم فيها ما ليس بقرآن؟» قال طلحة: بل قرآن كله. قال عليه السلام: «إن أخذتم بما فيه، نجوتم من النار ودخلتم الجنة»... قال طلحة: حسبي، أما إذا كان قرآنا فحسبي⁽¹⁾.

جمع زيد بن ثابت

كان ذلك الرافض القاسي لمصحف علي عليه السلام يستدعي التفكير في القيام بمهمة جمع القرآن مهما كلف الأمر، بعد أن أحس الناس بضرورة جمع القرآن في مكان، ولا سيما كانت وصية نبيهم صلى الله عليه وسلم بجمعه لئلا يضيع، كما ضيقت اليهود توراتهم⁽²⁾. مضافاً إلى أنه قد استحر القتل بكثير من حامليه ويوشك أن يذهب القرآن بذهاب حامله، فقد قتل منهم سبعون في واقعة يمامة. وفي رواية: أربعمأة⁽³⁾. وهذه الفكرة أبادها عمر بن الخطاب، واقترح على أبي بكر - وهو الخليفة يوم ذاك - أن ينتدب لذلك من تتوفر فيه شرائط القيام بهذه المهمة الخطيرة، فوق اختيارهم على زيد بن ثابت، وهو شاب حدث فيه مرونة حداثة السن وله سابقة كتابة الوحي أيضاً. فقد ملك الجدارة الذاتية من غير أن يخشى منه على جوانب الخلافة الفتية في شيء، كما كان يخشى من غيره من كبار الصحابة، وفيهم شيء من المناعة والجموح وعدم الانقياد التام لميول السلطة واتجاهاتها آنذاك.

منهج زيد

وجه زيد نداء عاماً إلى ملأ الناس: «من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به».

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 92، ص 42، ح 1.

(2) علي بن إبراهيم، تفسير القمي، ص 745، تحقيق السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب، ط 3.

(3) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 447.

وألف لجنة من خمسة وعشرين عضواً. كما جاء في رواية اليعقوبي⁽¹⁾. وكان عمر يُشرف عليهم بنفسه.

وكان اجتماعهم على باب المسجد يومياً والناس يأتونهم بأي القرآن وسوره، كل حسب ما عنده من القرآن.

وكانوا لا يقبلون من أحد شيئاً حتى يأتي بشاهدين يشهدان بصحة ما عنده من القرآن سوى خزيمة بن ثابت، أتى بالآيتين آخر سورة براءة، فقبلوهما منه من غير استشهاد، لأن رسول الله ﷺ اعتبر شهادته وحده شهادتين⁽²⁾. والمراد من الشاهدين شاهدان عدلان. أحدهما الذي أتى بالآية وعدل آخر. يشهدان بسماعهما قرآناً من النبي ﷺ بدليل قبول شهادة خزيمة بن ثابت الذي جاء بأخر سورة براءة، مكان شهادة رجلين وهكذا جاء في نص ابن أخته⁽³⁾.

ومن غريب الأمر أن عمر جاء بآية الرجم وزعمها من القرآن: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله» لكنه ووجه بالفرض، ولم تقبل منه، لأنه لم يستطع أن يُقيم على ذلك شاهدين وبقي أثر ذلك في نفس عمر، فكان يقول -أيام خلافته- لولا أن يقول الناس: «زاد عمر في كتاب الله»، لكتبتها بيدي. يعني آية الرجم⁽⁴⁾.

ثم إن جمع زيد لم يكن مرتباً ولا منظماً كمصحف، وإنما كان الاهتمام في ذلك الوقت على جمع القرآن وحفظه من الضياع، وضبط آياته وسوره حذراً عن التلف بموت حامله، فدونت في صحف وجعلت في إضبارة، وأودعت عند أبي بكر مدة حياته، ثم عند عمر بن الخطاب حتى توفاه الله، فصارت عند ابنته حفصة، وهي النسخة التي أخذها عثمان لمقابلة المصاحف عليها، ثم رده عليها، وكانت عندها إلى أن ماتت، فاستلبها مروان من ورثتها حينما كان والياً على المدينة من قبل معاوية، فأمر بها فشقت⁽⁵⁾.

(1) تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 113.

(2) ابن الأثير، أسد الغابة، ج 2، ص 114.

(3) السيوطي، الإتقان، ج 1، ص 58.

(4) الزركشي، والبرهان، ج 2، ص 35.

(5) القسطلاني، إرشاد الساري، ج 7، ص 449.

المفاهيم الرئيسة

- أن نظم الكلمات والجمل والتعابير في القرآن، كلها بفعله تعالى، لم يحدث فيها أيّ تغيير أو تبديل.
- تأليف الآيات ضمن كلّ سورة، على الترتيب الموجود، فهذا قد تحقّق في الأكثر. وفق ترتيب نزولها: كانت السور تبدأ بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فتسجّل الآيات التي تنزل بعدها من نفس هذه السورة.
- وهناك عامل آخر عمل في نظم قسم من الآيات على خلاف ترتيب نزولها، وذلك بنصّ من رسول الله ﷺ وتعيينه الخاصّ.
- كانت السور مكتملة على عهده ﷺ مرتبة آياتها وأسمائها، غير أن جمعها بين دفتين لم يكن حصل بعد، نظراً لترقّب نزول قرآن على عهده ﷺ فما دام لم ينقطع الوحي لم يصحّ تأليف السور مصحفاً.
- أوّل من تصدّى لجمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة وبوصية منه هو الإمام علي بن أبي طالب ؓ.
- بعد رفض مصحف الامام علي ؓ تم تكليف زيد بجمع القرآن الذي بدوره وجه زيد نداء عاماً إلى ملأ الناس: «من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به»، وألّف لجنة من خمسة وعشرين عضواً.
- إن جمع زيد لم يكن مرتباً ولا منظماً كمصحف، وإنّما كان الاهتمام في ذلك الوقت على جمع القرآن وحفظه من الضياع.

للمطالعة

مصاحف الصحابة

في الفترة بعد وفاة النبي ﷺ قامت جماعة من كبار الصحابة بتأليف القرآن، وجمع سوره بين دفتين، كلّ بنظم وترتيب خاصّ، وكان يُسمّى مصحفاً. وحاز بعض هذه المصاحف مقاماً رفيعاً في المجتمع الإسلامي آنذاك، فكان أهل الكوفة يقرؤون على مصحف عبد الله بن مسعود، وأهل البصرة يقرؤون على مصحف أبي موسى الأشعري، وأهل الشام على مصحف أبي بن كعب. وأهل دمشق خاصة على مصحف المقداد بن الأسود وفي رواية الكامل: أن أهل حمص كانوا على قراءة المقداد⁽¹⁾.

وصف عام من مصاحف الصحابة

كان الطابع العام الذي كانت المصاحف آنذاك تتسم به هو تقديم السور الطوال على القصار نوعاً ما في ترتيب منهجي خاصّ.

1. ابتداء من السور الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، الأعراف، الأنعام، المائدة، يونس⁽²⁾.

2. ثم المثني: وهي السور تربو آياتها على المائة، وهي ما تقرب من اثنتي عشرة سورة.

3. ثم المثاني: وهي السور لا تبلغ آياتها المائة، وهي ما تقرب من عشرين سورة. وسمّيت مثاني لأنها تتلى أي تكرر قراءتها أكثر ممّا تقرأ غيرها من الطوال والمثني.

4. ثم الحواميم: وهي السور بدأت بـ: «حم» وهي سبع سور.

5. ثم الممتحنات: وهي ما تقرب عشرين سورة.

6. ثم المفصّلات: تبتدىء من سورة الرحمن إلى آخر القرآن.

وسمّيت بذلك لقرب فواصلها وكثرة فصولها.

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 3، ص 55، والمصاحف للسجستاني: ص 11، 14. الزركشي، البرهان، ج 1، ص 239. 243.

(2) تلك السبع الطوال في مصاحف الصحابة، غير أنّ عثمان عمده إلى تقديم سورة الأنفال فزعمها مع سورة براءة سورة واحدة جعلهما من السبع الطوال. راجع: السيوطي، الإتقان، ج 1، ص 60، الحاكم النيسابوري ومستدرک الحاكم، ج 2، ص 221.

هذا هو الطابع العام لمصاحف الصحابة وإن كانت المصاحف تختلف مع بعضها في تقديم بعض السور على بعض وتأخيرها عنها أو يزيد عدد سور بعضها على بعض⁽¹⁾.

أمد هذه المصاحف

كان أمد هذه المصاحف قصيراً جداً انتهى بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان فذهبت مصاحف الصحابة عرضة التمزيق والحرق.

أرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق⁽²⁾. نعم حظيت بعض هذه المصاحف عمراً أطول، كالمصحف التي كانت عند حفصة.

(1) من أراد الوقوف عليها فليراجع محمد هادي معرفة، «التمهيد في علوم القرآن» ج 1، ص 312-331.
(2) صحيح البخاري، ج 6، ص 226، نشر دار الفكر للطباعة والنشر - لبنان 1981م، كتاب فضائل القرآن.

الدرس العاشر

الرسم القرآنيّ

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يتعرّف على أقسام الرسم القرآنيّ.
- 2 . يُميّز بين بعض كلمات الرسم العثمانيّ والرسم القياسيّ.
- 3 . يشرح خصائص الرسم العثمانيّ.

قال الله تبارك وتعالى ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾.

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بلسان العرب؛ وذلك لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه، والقرآن الكريم ليس أمراً ونهياً وكلمات ومعاني فقط، بل هو رسم أيضاً. ومن المعلوم أن للقرآن الكريم منهجاً خاصاً في الكتابة، يختلف نوعاً ما عن الكتابة التي ألفها الناس.

أقسام الرسم القرآني

قسّم العلماء الرسم الكتابي - الخط الإملائي - إلى قسمين رئيسيين. الأول: أطلقوا عليه اسم الرسم القياسي، ويقصدون به كتابة الكلمة كما تلفظ، مع الأخذ بعين الاعتبار حالتها الابتدائية بها والوقف عليها.

الثاني: أطلقوا عليه اسم الرسم التوقيفي، ويقصدون به الرسم العثماني، إذ هو الرسم الذي كتبت به المصاحف.

وقد صنّف العلماء في هذا المجال ما عُرف بـ «علم الرسم القرآني» ووضعوا كتباً خاصة في هذا الموضوع، منها، على سبيل المثال لا الحصر، كتاب «المقنع في معرفة رسم مصاحف الأمصار» لأبي عمرو الداني، وكتاب التنزيل لأبي داود سليمان نجاح.

متباينات الرسم العثماني والرسم القياسي

إنَّ الرسم العثماني يُخالف الرسم القياسي من بعض الوجوه، أهمها خمسة وجوه، نذكرها فيما يأتي مع التمثيل لها:

الوجه الأول، الحذف:

وهو كثير، ويقع في حذف الألف، والواو، والياء.

فمن أمثلة حذف الألف، قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَكُنْ﴾ (1) حيث حُذفت الألف بعد العين، وقد كتبت كذلك في جميع مواضعها في القرآن، والأصل في كتابتها حسب الرسم الإملائي (العالمين).

ومن أمثلة حذف الواو، قوله تعالى: ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ (2)، وقد وردت في موضعين من القرآن، والأصل فيها (الغاوون).

ومن أمثلة حذف الياء، قوله تعالى: ﴿الْتَّيِّبِينَ﴾ (3)، وقد وردت كذلك في جميع مواضعها في القرآن، وعدد مواضعها ثلاثة عشر موضعاً، والأصل في كتابتها (النتيبين).

ومن وجوه حذف الأحرف أيضاً، حذف اللام والميم.

فمثال حذف اللام، قوله تعالى: ﴿الَّيْلِ﴾ (4) وقد كتبت كذلك في جميع مواضعها، وعددها ثلاثة وسبعون موضعاً، والأصل فيها (الليل).

ومثال حذف النون ﴿نُجِي﴾ (5) والأصل فيها (ننجي).

1. كلمة «اسم»:

قال الله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ (6)، ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (7)، حيث وردت كلمة (اسم) بألف صريحة، بينما في البسمة مثلاً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ (8) بلا ألف.

(1) سورة الفاتحة، الآية 2.

(2) سورة الشعراء، الآية 94.

(3) سورة البقرة، الآية 61.

(4) سورة آل عمران، الآية 190.

(5) سورة الأنبياء، الآية 88.

(6) سورة الواقعة، الآيتان 95 و 96.

(7) سورة العلق، الآية 1.

(8) سورة الفاتحة، الآية 1.

2. كلمة (سموات - سموات):

وردت كلمة ﴿سَمَوَاتٍ﴾ بهذا الرسم بدون ألف صريحة 189 مرة في القرآن الكريم... ووردت مرة واحدة فقط بألف صريحة بعد حرف (و) بالرسم القرآني، ﴿سَمَوَاتٍ﴾ وذلك في الآية الكريمة رقم 12 من سورة فصلت ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾⁽¹⁾.

3. كلمة (الميعاد. الميعاد):

وردت كلمة (الميعاد) وذلك بألف صريحة في وسط الكلمة 4 مرات في القرآن الكريم... وكلها تتكلم عن الميعاد الأخروي الذي وعده الله سبحانه وتعالى.. لذلك جاء الميعاد واضحاً وصريحاً ولا ريب فيه مثال ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾⁽²⁾، ولما تحدت القرآن عن لقاء المسلمين بالكفار في المعركة جاءت الكلمة بلا ألف صريحة: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾⁽³⁾.

4. كلمة (سعوا. سعوا):

وردت (سعوا) بشكلها العادي مرة واحدة: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾⁽⁴⁾، ووردت (سعوا) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾⁽⁵⁾ بشكلها غير العادي بدون ألف في آخرها مرة واحدة أيضاً في القرآن الكريم.

5. كلمة (صحب. صاحب):

في الآية 34 من سورة الكهف يقول القرآن الكريم على لسان مالك الجنّتين: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾⁽⁶⁾، بألف متروكة.

(1) سورة فصلت، الآية 12.

(2) سورة آل عمران، الآية 9.

(3) سورة الأنفال، الآية 42.

(4) سورة الحج، الآية 51.

(5) سورة سبأ، الآية 5.

(6) سورة الكهف، الآية 34.

غير أنّ الردّ يأتيه من صاحبه المؤمن في الآية 37 من نفس سورة الكهف: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾⁽¹⁾ باستخدام الألف الصريحة، والمدّ بالألف المتروكة.

6. حذف حرف الواو من بعض الأفعال:

ورد أنّه تمّ كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو وهي: ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ ﴾⁽²⁾، ﴿ وَيَمْسُحُ اللَّهُ الْبَطْلَ ﴾⁽³⁾، ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾⁽⁴⁾، ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾⁽⁵⁾ ولكن من غير نقط، ولا شكل في الجميع.

7. كلمة (وسئل. فستل):

ورد في القرآن الكريم كلّ فعل الأمر من (سأل) ناقصاً حرف (أ) في البداية. ونذكر فيما يلي نماذج من الآيات الكريمة التي ورد فيها هذا الفعل: قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَسئِلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾⁽⁶⁾. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَسئِلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾⁽⁷⁾.

8. كلمة (أيد. أييد):

وردت كلمة (أيد) وهي جمع يد مرتين في القرآن الكريم بهذا الرسم العادي، وذلك في الآيتين التاليتين: قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾⁽⁸⁾. غير أنّها وردت مرّة واحدة برسم مختلف يزيد حرف (ي) في منتصفها، وذلك في الآية الكريمة الآتية: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾⁽⁹⁾.

(1) سورة الكهف، الآية 37.

(2) سورة الإسراء، الآية 11.

(3) سورة الشورى، الآية 24.

(4) سورة القمر، الآية 6.

(5) سورة العلق، الآية 18.

(6) سورة يوسف، الآية 82.

(7) سورة النحل، الآية 43.

(8) سورة ص، الآية 17.

(9) سورة الذاريات، الآية 47.

الوجه الثاني، الزيادة:

وتكون في الألف، والواو، والياء، فمثال الزيادة في الألف قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ﴾⁽¹⁾، والأصل فيها (وجيء).

ومثال الزيادة في الواو قوله تعالى ﴿سَأُورِيكُمْ﴾⁽²⁾، والأصل فيها (سأريكم).

ومثال الزيادة في الياء قوله تعالى ﴿بِأَيْدٍ﴾⁽³⁾، وهو الموضع الوحيد في القرآن، والأصل فيها (بأيد).

الوجه الثالث، الممزم:

حيث وردت الهمزة في الرسم العثماني تارةً برسم الألف، وتارةً برسم الواو، وتارةً برسم الياء. فمن أمثلة ورودها ألفاً، قوله تعالى ﴿لَنَنْوَأَ﴾⁽⁴⁾، وهو الموضع الوحيد، والأصل فيها (لنتنوء).

ومن أمثلة ورودها واواً قوله تعالى: ﴿يَكْبَدُوا﴾⁽⁵⁾، وهي كذلك في مواضعها الستة من القرآن، والأصل فيها (بيدأ).

ومن أمثلة مجيئها ياءً، قوله تعالى ﴿وَأَيَّتَآيِ﴾⁽⁶⁾، وهو الموضع الوحيد من ثلاثة مواضع، والأصل فيها (وايتاء).

الوجه الرابع، البدل:

ويقع برسم الألف واواً أو ياءً، فمن مجيئها واواً قوله تعالى: ﴿الصَّلَاةَ﴾⁽⁷⁾، وهي كذلك في جميع مواضعها الأربعة والستين، والأصل (الصلاة) ومثلها (الزكاة).

ومن صور رسمها ياءً، قوله تعالى: ﴿يَتَأَسَفْنَ﴾⁽⁸⁾، والأصل فيها (يا أسفا).

(1) سورة الزمر، الآية 69، سورة الفجر، الآية 23.

(2) سورة الأعراف، الآية 145.

(3) سورة الذاريات، الآية 47.

(4) سورة القصص، الآية 76.

(5) سورة يونس، الآية 34.

(6) سورة النحل، الآية 90.

(7) سورة البقرة، الآية 3.

(8) سورة يوسف، الآية 84.

ومن ذلك أيضاً، قوله تعالى ﴿وَالضُّحَىٰ﴾⁽¹⁾، ولم ترد إلا في هذا الموضع، والأصل فيها (والضحى).

الوجه الخامس، الفصل والوصل:

فقد رسمت بعض الكلمات في المصحف العثماني متصلة مع أن حقها الفصل، ورسمت كلمات أخرى منفصلة مع أن حقها الوصل، فمن أمثلة ما اتصل وحقه الفصل ما يلي:
(عن) مع (ما) حيث رسمتا في مواضع من القرآن الكريم متصلتين، من ذلك قوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁽²⁾، وقد وردت كذلك في جميع المواضع.

(بئس) مع (ما) رسمتا متصلتين في مواضع، من ذلك قوله تعالى:

﴿بِئْسَمَا أَنتَرَوْا﴾⁽³⁾، وهي كذلك في مواضعها الثلاثة.

(كي) مع (لا) رسمتا متصلتين في مواضع، من ذلك قوله تعالى ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا

عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾⁽⁴⁾، وهي كذلك في مواضعها الأربعة.

ومن أمثلة ما انفصل وحقه الوصل ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِنْنَةِ أَرْكَسُوا فِيهَا﴾⁽⁵⁾، وقد جاءت كذلك في ثلاثة مواضع، وجاءت متصلة على الأصل في خمسة عشر موضعاً.

- قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾⁽⁶⁾، وقد جاءت كذلك في ثمانية مواضع، وجاءت متصلة على الأصل في أربعة مواضع.

هذه الوجوه الخمسة التي أتينا على ذكرها، مع شيء من التمثيل لها، هي أهم الوجوه التي

فارق فيها الرسم العثماني الرسم الإملائي.

(1) سورة الضحى، الآية 1.

(2) سورة البقرة، الآية 74.

(3) سورة البقرة، الآية 90.

(4) سورة آل عمران، الآية 153.

(5) سورة النساء، الآية 91.

(6) سورة البقرة، الآية 148.

المفاهيم الرئيسية

- قسّم العلماء الرسم الكتابي - الخطّ الإملائيّ - إلى قسمين رئيسيين:
الأوّل: أطلقوا عليه اسم الرسم القياسي، ويقصدون به كتابة الكلمة كما تُلفظ، مع الأخذ بعين الاعتبار حالتها الابتدائية بها والوقف عليها.
- الثاني: أطلقوا عليه اسم الرسم التوقيفيّ، ويقصدون به الرسم العثمانيّ، إذ هو الرسم الذي كُتبت به المصاحف.
- إنَّ الرسم العثمانيّ يُخالف الرسم القياسيّ من بعض الوجوه، أهمّها خمسة وجوه: الحذف، الزيادة، الهمز، البديل، الفصل والوصل.

للمطالعة

لا يقتصر دور القرآن الكريم على هداية الإنسان إلى طريق النجاة في الآخرة، بل دوره يرتبط بكافة جوانب حياة الإنسان، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى ونقصان من عمى، واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على بلوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والعمى والضلال.

اسألوا الله به وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه؛ إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله. واعلموا أنه شافع مشفع، وقائل مصدق وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثه القرآن، فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلّوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم»⁽¹⁾.

(1) الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ج2، ص92.

الدرس الحادي عشر

الإعجاز القرآني

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يعرف معنى الإعجاز.
- 2 . يفهم فلسفة تنوع المعجزات وأقسامها.
- 3 . يتبين أسلوب القرآن في تحدي الأمم.

معنى الإعجاز

أ. **المعنى اللغوي:** العين والجيم والزاء أصلان صحيحان يدلّ أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء، فالأول: عجز عن الشيء يعجز عجزاً؛ فهو عاجز؛ أي ضعيف... ويقال: أعجزني فلان: إذا عجزت عن طلبه وإدراكه⁽¹⁾. والعجز: أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر؛ أي: مؤخره... وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء؛ وهو ضد القدرة⁽²⁾.

ب. **المعنى الاصطلاحي:** المَعْجَز هو: الأمر الخارق للعادة، المطابق للدعوى، المقرون بالتحدي⁽³⁾. والإعجاز هو: أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه، مع إمكان صدق هذه الدعوى بحكم العقل، أو النقل الثابت عن نبي أو إمام معصوم⁽⁴⁾.

فلسفة تنوع المعجزات

روي أنه سأل ابن السكيت⁽⁵⁾ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، فقال: لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسى بألة الطب؟ وبعث

(1) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج4، ص 232، مادة «عجز».

(2) انظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 547، مادة «عجز».

(3) انظر: الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ج4، ص25، ط2، طهران، نشر مرتضوي؛ مطبعة چاپخانه طراوت، 1362 هـ.ش، مادة «عجز».

(4) انظر: الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص33-34.

(5) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الدورقي الأهوازي الشيعي؛ أحد أئمة اللغة والأدب، ذكره كثير من المؤرخين وأثنوا عليه، وكان ثقة جليلاً من عظماء الشيعة، ويعدّ من خواصّ الإمامين التقيين (عليهما)، وكان حامل لواء علم العربية والأدب والشعر واللغة والنحو، له تصانيف كثيرة مفيدة، منها: كتاب تهذيب الألفاظ، وكتاب إصلاح المنطق.

محمدًا ﷺ بالكلام والخطب؟ فقال ﷺ: «إن الله لما بعث موسى ﷺ كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم. وإن الله بعث عيسى ﷺ في وقت قد ظهرت فيه الزمانات⁽¹⁾، واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيى لهم الموتى، وأبرء الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم. وإن الله بعث محمدًا ﷺ في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام، فأتاهم من عند الله من مواظبه وحكمه؛ ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم»⁽²⁾.

ويُفهم من هذه الرواية أنّ فلسفة تنوّع المعجزات تدور مدار الخاصية الغالبة على أهل عصر من يُجري الله تعالى على يديه المعجزة؛ لتكون أبلغ في التأثير، وأظهر في التحدي، وأكد في تصديق الدعوة.

ولهذا ذكروا أنّ المعجزة تنوّع حسب تنوّع الأمم المرسل إليهم في المواهب والمعطيات، فتتناسب مع مستوى رقيهم في مدارج الكمال، فمن غليظ شديد إلى رقيق مرهف، ومن قريب مشهود إلى دقيق بعيد الأفاق. وهكذا كلما تقادمت الأمم في الثقافة والحضارة، فإنّ المعاجز المعروضة عليهم من قبل الأنبياء ﷺ ترقّ وتلطّف، وكانت آخر المعاجز رقة ولطفاً هي أرقاها نمطاً وأعلاها أسلوباً، ألا وهي معجزة الإسلام الخالدة، عرضت على البشرية جمعاء مع الأبد، مهما ارتقت وتضاعفت في آفاق الكمال، الأمر الذي يتناسب مع خلود شريعة الإسلام.

ولقد صعب على العرب -يومذاك وهم على البداوة الأولى- تحمّل عبء القرآن الثقيل، فلم يطيقوه. ومن ثمّ تمنّوا لو يُبدّل إلى قرآن غير هذا، ومعجزة أخرى لا تكون من قبيل الكلام: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِفِرْعَوْنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّايَ نَفْسِي إِنَّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ﴾⁽³⁾.

(1) الآفات الواردة على بعض الأعضاء، فيمنعها عن الحركة؛ كالفالج، واللقوة. ويطلق المزمّن على مرض طال زمانه.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 24.

(3) سورة يونس، الآية 15.

إنها لم تكن معجزة للعرب فقط، وإنما هي معجزة للبشرية عبر الخلود، لكن أنى لأمة جهلاء أن تلمس تلك الحقيقة وأن تدرك تلك الواقعية سوى أنها ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ۝١٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝١١ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيَلًا ۝١٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ... ۝١٣﴾ (1) وقد عجب النبي ﷺ من مقترحهم ذلك التافه الساقط، مما يتناسب ومستواهم الجاهلي ومن ثم رفض اقتراحهم ذلك وقال: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝١٤﴾ (2) أي ليس هذا من شأنكم وإنما هي حكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير.

المعجزات حسية وعقلية

قال الراغب الإصفهاني: المعجزات التي أتى بها الأنبياء ﷺ ضربان: حسّي وعقلي. فالحسّي: ما يُدرك بالبصر، كناقية صالح، وطوفان نوح، ونار إبراهيم، وعصا موسى ﷺ. والعقلي: ما يُدرك بالبصيرة كالإخبار عن الغيب تعريضاً وتصريحاً، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلم. فأما الحسّي: فيشترك في إدراكه العامة والخاصة، وهو واقع عند طبقات العامة، وأخذ بمجامع قلوبهم، وأسرع لإدراكهم، إلا أنه لا يكاد يفرق - بين ما يكون معجزة في الحقيقة وبين ما يكون كهانة أو شعبة أو سحراً، أو سبباً اتفاقياً أو مواطأة، أو احتيالاً هندسياً أو تمويهاً وافتعالاً - إلا ذو سعة في العلوم التي يعرف بها الأنبياء. وأما العقلي: فيختص بإدراكه كلمة الخواص من ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة، الذين يُغنيهم إدراك الحق. وما أتى به النبي ﷺ من معجزاته الحسّية، كتسبيح الحصى في يده، ومكالمة الذئب له، ومجيء الشجرة إليه، فقد حواها وأحصاه أصحاب الحديث.

(1) سورة الإسراء، الآيات 90-93.

(2) سورة الإسراء، الآية 93.

وأما العقليات: فمن تفكر فيما أورده ﷺ من الحكم التي قصرت عن بعضها أفهام حكماء الأمم بأوجز عبارة اطلع على أشياء عجيبة.

ومما خصه الله تعالى به من المعجزات القرآن، وهو آية حسية عقلية صامتة ناطقة باقية مدى الدهر مبثوثة في الأرض، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ۗ ﴾⁽¹⁾. ودعاهم ليلاً ونهاراً - مع كونهم أولي بسطة في البيان - إلى معارضته، بنحو قوله: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ... ﴾⁽²⁾ وفي موضع آخر: ﴿ وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾⁽³⁾. وقال: ﴿ قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾⁽⁴⁾.

فجعل عجزهم علماً للرسالة، فلو قدروا ما قصرُوا، إذ قد بذلوا أرواحهم في إطفاء نوره وتوهين أمره، فلما رأيناهم تارة يقولون: ﴿ لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾⁽⁵⁾. وتارة يقولون: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾⁽⁶⁾ وتارة يصفونه بأنه: ﴿ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾⁽⁷⁾. وتارة يقولون: ﴿ لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾⁽⁸⁾. وتارة يقولون: ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾⁽⁹⁾، كل ذلك عجزاً عن الإتيان بمثله، علمنا قصورهم عنه، ومحال أن يُقال: إنه عورض فلم ينقل، فالنفوس مهتزة لنقل ما دقَّ وجلَّ. وقد رأينا كتباً كثيرة صنفت في الطعن على الإسلام قد نقلت وتداولت.

(1) سورة العنكبوت، الآيات 50 و 51.

(2) سورة البقرة، الآية 23.

(3) سورة يونس، الآية 38.

(4) سورة الإسراء، الآية 88.

(5) سورة فصلت، الآية 26.

(6) سورة الأنفال، الآية 31.

(7) سورة النحل، الآية 24.

(8) سورة الفرقان، الآية 32.

(9) سورة يونس، الآية 15.

ويمتاز القرآن على سائر المعاجز بأنه يضمّ إلى جانب كونه معجزاً جانب كونه كتاب تشريع، فقد قرن التشريع بإعجاز ووحد بينهما، فكانت دعوة يُرافقها شهادة من ذاتها، دلّ على ذاته بذاته.

التحدّي في خطوات

لقد تحدّى القرآن عامّة العرب، فحاولوا معارضته ولكن لا بالكلام، لعجزهم عنه، بل بمقارعة السيوف وبذل الأموال والنفوس، دليلاً على فشلهم على مقابلته بالبيان.

وربّما كانوا - في بدء الأمر - استقلّوا من شأنه، حيث قالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾⁽¹⁾. وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾⁽²⁾ وقالوا: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾⁽³⁾ وقالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾⁽⁴⁾، إلى أمثالها من تعابير تتمّ عن سخر أو هامهم. لكن سرعان ما تراجعت العرب على أعقابها فانقلبوا صاغرين، وقد ملكتهم روعة هذا الكلام وطغت عليهم سطوته، متهكماً بموقفهم هذا الفاشل ومتحدّياً في مواضع.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣٣) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾⁽⁵⁾.

وحدّد لهم لويأتوا بعشر سور مثله مفتريات فيما كانوا يزعمون: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَفْتَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٣) ﴿فَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُوا غَيْرُ بَشَرٍ لَقَدْ أَنْزَلَ إِلَهُكُمُ الْقُرْآنَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾⁽⁶⁾.

وتصاغراً من شأنهم تنازل أن لو استطاعوا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَفْتَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣٨) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾⁽⁷⁾.

(1) سورة الأنفال، الآية 31.

(2) سورة المدثر، الآية 25.

(3) سورة النحل، الآية 103.

(4) سورة الأنعام، الآية 91.

(5) سورة الطور، الآيتان 33 و 34.

(6) سورة هود، الآيتان 13 و 14.

(7) سورة يونس، الآيتان 38 و 39.

وأخيراً حكم عليهم حكمه البات: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾⁽¹⁾ أن ليس باستطاعتهم ذلك مهما حاولوه وأعدوا له من حول وقوة، لأنه كلام يفوق كلام البشر كافة. والآن وقد حان إعلان التحدي بصورته العامة متوجّهاً إلى البشرية جمعاء، تحدياً مستمراً عبر الأجيال: ﴿قُلْ لِيَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾⁽²⁾.

وهل وقع التحدي بجميع وجوه الإعجاز أم كان يخص جانب فصاحته وبلاغته وبتدبير نظمه وعجيب أسلوبه فحسب؟ ولعلّه يختلف حسب اختلاف الخطاب... فحيث كان التحدي متوجّهاً إلى العرب خاصة ولا سيما ذلك العهد، الذي كانت مهنة العرب فيه خاصة بجانب البيان وطلاقة اللسان... فلا جرم كان التحدي حينذاك أيضاً خاصاً بهذا الجانب في ظاهرة الخطاب... أما وبعد أن توجه النداء العام إلى كافة البشرية على الإطلاق فإنه لا بد أن يقع التحدي بمجموعة وجوه الإعجاز من حيث المجموع... حيث اختلاف الاستعدادات والقابليات... والقرآن معجزة الإسلام لجميع الأدوار وعامة الأجيال ولمختلف طبقات الناس، في الفنون والمعارف والعلوم والثقافات...

التحدي في شموله

وهذا التحدي في عمومته يشمل كل الأمم كل أدوار التاريخ، سواء العرب وغيرهم، وسواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود متأخرة حتى الأبد. اللفظ عام والخطاب شامل⁽³⁾ ولأن التحدي لم يكن في تعبيره اللفظي فقط ليخص لغة العرب، وإنما هو بمجموعته من كيفية الأداء والبيان والمحتوى جميعاً. كما أنه لم يخص جانب فصاحته فحسب، ليكون مقصوراً على العهد الأول، حيث العرب في ازدهار الفصاحة والأدب. على أن الفصاحة والبلاغة لم

(1) سورة البقرة، الآية 24.

(2) سورة الإسراء، الآية 88.

(3) وبالتعبير الاصطلاحي الأصولي: إن هذا الخطاب يضم إلى جانب عمومته الأفراد إطلاقاً وأحياناً وإطلاقاً زمانياً معاً، إذ إن للخطاب شمول من النواحي الثلاث: الأفراد الموجودون، والأقوام الذين يأتون من بعد. وأياً كانت حالتهم وعلى أي صفة كانوا...

تختص بلغة دون أخرى ولا بأمة دون غيرها.

لكن هناك من حاول اختصاص التحدي بالعهد الأول وإن كان الإعجاز باقياً مع الخلود زعماً بأن عجز ذلك الدور يكفي دليلاً على كونه معجزاً أبداً. هكذا زعمت الكاتبة بنت الشاطيء، قالت: مناط التحدي هو عجز بلغاء العرب في عصر المبعث، وأما حجة إعجازه فلا تخص عصراً دون عصر وتعم العرب والعجم، وكان عجز البلغاء من العصر الأول وهم أهل الفصاحة برهاناً فاصلاً في قضية التحدي...⁽¹⁾.

قلت: ولعلها في ذهابها هذا المذهب، خشيت أن لو قلنا بأن التحدي قائم ولا يزال، أن سوف ينبري نائرة الكفر والإلحاد، ممن لا يقل عددهم في الناطقين بالضاد، فيأتي بحديث مثله، وبذلك ينقض أكبر دعامة من دعائم الإسلام.

لكنها فلنطمئن أن هذا لم يقع ولن يكون، لأن القرآن وضع على أسلوب لا يُدانيه كلام بشر البتة ولن يتمكن أحد أن يُجاريه لا تعبيراً وأداءً ولا سبكاً وأسلوباً. ما دام الإعجاز قائماً بمجموعة اللفظ والمعنى، رفعة وشموخ في المحتوى، وجمال وبهاء في اللفظ والتعبير، فأَيُّ متكلم أو ناطق يُمكنه الإتيان بهكذا مطالب رفيعة، لم تسبق لها سابقة في البشرية وفي هكذا قالب جميل! اللهم إلا أن يفضح نفسه.

وفي التاريخ عبر عن أناس حاولوا معارضة القرآن، لكنهم أتوا بكلام لا يُشبه القرآن ولا يُشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة، باد عواره، باق عاره وشناره، فمن حدثته نفسه أن يُعيد هذه التجربة، فليُنظر في تلك العبر، ومن لم يستح فليصنع ما شاء.

وتلك شهادات من أهل صناعة الأدب، اعترفوا - عبر العصور - بأن القرآن فذ في أسلوبه لا يُمكن لأحد من الناس أن يُقاربه فضلاً عن أن يُماثله.

قال الدكتور عبد الله دراز: من كانت عنده شبهة، زاعماً أن في الناس من يقدر على الإتيان بمثله، فلنرجع إلى أدباء عصره، وليسألهم: هل يقدر أحد منهم على أن يأتي بمثله؟ فإن قالوا: نعم، لو نشاء لقلنا مثل هذا، فليقل لهم: هاتوا برهانكم. وإن قالوا: لا طاقة لنا

(1) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء)، الإعجاز البياني، ص 65 - 68.

به. فليقل لهم: أي شيء أكبر شهادة على الإعجاز من الشهادة على العجز. ثم ليرجع إلى التاريخ فليسأله ما بال القرون الأولى؟ يُنبئك التاريخ أن أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن الكريم، وأن بضعة النفر الذين انغضوا رؤوسهم إليه، باؤوا بالخزي والهوان، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان⁽¹⁾.

سرّ الإعجاز

وجوه الإعجاز في مختلف الآراء والنظرات:

اختلف أنظار العلماء في وجه إعجاز القرآن، بين من أنهاه إلى عدة وجوه ومن اقتصر على وجه واحد:

1. ذهب أرباب الأدب والبيان إلى أنها الفصاحة البالغة والبلاغة الفائقة، إن في بديع نظمه أو في عجيب رصفه، الذي لم يسبق له نظير ولن يخلفه بديل... قالوا في دقة هذا الرصف والنضد: لو انتزعت منه لفظة ثم أدير بها لغة العرب كلّها على أن يوجد لها نظير في موضعها الخاص، لم توجد البتة...
2. وتوسّع المحدثون في البحث وراء نظامه الصوتي العجيب: أنغام وألحان تبهر العقول وتذهل النفوس، نظمت كلماته على أنظمة صوتية دقيقة، ورفضت ألفاظه وعباراته على ترصيفات موسيقية رقيقة، متناسبات الأجراس، متناسبات التوافق، في تقاسيم وتراكيب سهلة سلسة، عذبة سائغة، ذات رنة وجذبة شعرية واستهواء سحري غريب!
3. وأضاف المحققون جانب اشتماله على معارف سامية وتعاليم راقية تُنبئك عن لطيف سرّ الخليقة، وبديع فلسفة الوجود، في جلال وعظمة وكبرياء، بما يترفع كثيراً عما راجت في تعاليم مصطنعة ذلك العهد، سواءً في أوساط أهل الكتاب أم الوثنيين.

(1) النبأ العظيم، ص 75.

4. وهكذا تشريعاته جاءت حكيمة ومتينة، متوافقة مع الفطرة ومتوائمة مع العقل السليم... في طهارة وقداسة وسعة وشمول، كانت جامعة كاملة كافلة لإسعاد الحياة في النشاطين.
5. وكانت براهينه ساطعة ودلائله ناصعة، واضحة ولائحة، قامت على صدق الدعوة وإثبات الرسالة... في بيان رصين ومنطق رزين وفصل خطاب.
6. واشتماله على أنباء غيبية، أمّا سالفه كانت محرّفة سقيمة، فجاءت محرّرة سليمة في القرآن الكريم، أو إخبار عمّا يأتي، تحقّق صدقها بعد فترة قصيرة أو طويلة، كانت شاهدة صدق على صدق الرسالة.
7. إلى جنب إشارات علمية، عابرة، إلى أسرار من هذا الكون الفسيح، وإلماعات خاطفة إلى حقائق من خفايا الوجود، ممّا لا تكاد تبلغه معرفة الإنسان الكائن يومذاك.
8. وأخيراً استقامته في البيان، وسلامته من أيّ تناقض أو اختلاف، في طول نزوله، وكثرة تكراره لسرد حوادث الماضين، كلّ مشتمل على مزية ذات حكمة لا توجد في أختها. وكذا خلّوه عن الأباطيل وعمّا لا طائل تحتها.
- تلك روائع آراء نتجتها أنظار الأدباء، وبدائع أسرار وصلت إليها أفكار العلماء، كانت من وجوه إعجاز القرآن ومزاياه الوسيمة.

المفاهيم الرئيسية

- المَعْجَزُ هو: الأمر الخارق للعادة، المطابق للدعوى، المقرون بالتحدي. والإعجاز هو: أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه.
- أن فلسفة تنوع المعجزات تدور مدار الخاصية الغالبة على أهل عصر من يُجري الله تعالى على يديه المعجزة؛ لتكون أبلغ في التأثير، وأظهر في التحدي، وأكد في تصديق الدعوة.
- المعجزات التي أتى بها الأنبياء ﷺ ضربان: حسي وعقلي. فالحسي: ما يُدرك بالبصر ويشترك في إدراكه العامة والخاصة. وأمّا العقلي: فيختص بإدراكه كلمة الخواص من ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة، الذين يُغنيهم إدراك الحق.
- لقد تحدى القرآن عامة العرب، فحاولوا معارضته ولكن لا بالكلام، لعجزهم عنه، بل بمقارعة السيوف وبذل الأموال والنفوس، دليلاً على فشلهم على مقابلته بالبيان.
- وهذا التحدي في عمومه يشمل وكل الأمم كل أدوار التاريخ، سواء العرب وغيرهم، وسواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود متأخرة حتى الأبد.

للمطالعة

الإعجاز العلمي في القرآن

كل الكواكب متحركة

لقد أصبح أمراً ثابتاً ومؤكداً في علم الفلك الحديث بأنه لا وجود لكوكب ساكن في الكون وأنه لا صحة لفكرة تقسيم السيّارات والكواكب إلى ثابتة ومتحركة كما كان يقول القدماء، بل إنه لا وجود حتى لكوكب واحد ساكن في هذا العالم اللامتناهي. وحتى سنين خلت كانت السيّارات تُعدّ بحدود الـ 300 مليون بينما صاروا يعجزون اليوم عن عدّها وإحصائها.

وقد ورد في القرآن الكريم بصراحة قول الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾⁽¹⁾ أي أنه لا وجود للكوكب الثابت بل إن كل واحد منها يسبح ويتحرك في المدار الذي حدّد له من قبل الله تعالى، في حين أن بطليموس كان يقول بأن الفلك الثامن ما هو إلا عبارة عن فلك ثابت وأن الكواكب الموجودة فيه ساكنة، لكن القرآن الكريم يؤكّد أن الجميع في حالة حركة مستمرة.

الجبال هي المسامير المثبتة للأرض

لقد أصبح من الأمور الثابتة اليوم كون الجبال الواقعة فوق الأرض والممتدة جذورها في عمق الكرة الأرضية هي السبب في استقرار الأرض. فلولا وجود هذه الجبال فإن هذه الكرة الأرضية التي تقطع أربعة فراسخ في حركتها الانتقالية في كل دقيقة وأربعة فراسخ أخرى في حركتها الموضعية في كل ثانية و240 فرسخاً في حركتها الدورانية حول نفسها كانت في طريقها إلى الزوال والتلاشي، لكن هذه الجبال هي التي تمنع تلاشيها. وهذا الأمر سبق أن أشار إليه القرآن المجيد وأكّده قبل ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة مضت حيث قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادٌ﴾⁽²⁾ كما جاء في سورة النبأ، الآية: 7. وكما يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في إحدى خطبه الغراء: «فطر الخلائق بقدرته ووتد بالصخور ميدان أرضه»⁽³⁾.

(1) سورة يس، الآية 40.

(2) سورة النبأ، الآية 7.

(3) نهج البلاغة، ص 39.

الدرس الثاني عشر

صيانة القرآن من التحريف

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يُعدّد الأقوال في معنى التحريف.
- 2 . يفهم الدلائل على دحض شبهة التحريف.
- 3 . يحفظ ثلاثة من أدلة عدم التحريف.

ما هو التحريف؟

ذُكر في معنى التحريف عدّة وجوه:

1. تحريف بمدلول الكلام: وهو تفسيره على غير وجهه بمعنى تأويله وتحوير دلالاته بما لا يكون اللفظ ظاهراً فيه بذاته لا بحسب الوضع ولا بحسب القرائن المعهودة ومن ثمّ فهو تأويل باطل المعبر عنه بالتفسير بالرأي المنهي عنه في لسان الشريعة المقدّسة. قال عليه السلام: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»⁽¹⁾، أي عمد إلى القرآن ليجعل من رأيه الخاص تفسيراً له.
2. تحريف قرائي: فتقرأ الكلمة على خلاف قراءتها المعهودة لدى جمهور المسلمين، وهذا كأكثر اجتهادات القراء في قراءاتهم المبتدعة لا عهد لها في الصدر الأوّل، الأمر الذي لا نُجيزه بعد أن كان القرآن واحداً نزل من عند واحد كما في الحديث الشريف⁽²⁾.
3. تحريف في لهجة التعبير: كما في لهجات القبائل تختلف عند النطق بالحرف أو الكلمة في الحركات وفي الأداء. الأمر الذي يجوز، ما دامت بُنية الكلمة الأصليّة محتفظة لا يختلف معناها وقد نزلنا حديث الأحرف السبعة - على فرض صحّة الإسناد - على إرادة اختلاف لهجات العرب في أداء الكلمات والحروف، بل وحتىّ إذا لم تكن اللهجة عربيّة، فإنّ الملائكة ترفعها عربيّة كما في الحديث⁽³⁾.

(1) ابن أبي جمهور، غوالي اللثالي، ج 4، ص 104، رقم 154.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 627.

(3) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 4، ص 866.

نعم لا يجوز إذا كان لحناً أي خطأ ومخالفاً لقواعد الإعراب. قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾⁽¹⁾ وقد أمرنا بقراءة القرآن عربيّة صحيحة «تعلّموا القرآن
بعربيّته»⁽²⁾.

وهكذا إذا كان التحريف اللهجي مغيّراً لمعنى الكلمة فإنه لا يجوز، ولا سيّما إذا كان
عن عمد ولغرض خبيث، كما كانت تفعله اليهود عند اللهج بلفظه «راعنا» فكانت تميل
بحركة العين إلى فوق لتصبح معنى الكلمة «شّريرنا» حسبما ذكره الحسين بن علي
المغربي⁽³⁾ وذكره في سورة البقرة (آية: 102) وكذا في سورة النساء (آية: 46).

4. تحريف بتبديل الكلم: بأن تتبدّل الكلمة إلى غيرها مرادفة لها أو غير مرادفة. الأمر
الذي كان يجوّزه ابن مسعود في المترادفات نظراً منه إلى حفظ المعنى المراد ولا
بأس باختلاف اللفظ.

وقد أسبقنا عدم جواز ذلك في نصّ الوحي، حيث الإعجاز قائم بلفظه كما هو قائم
بمعناه

5. التحريف بزيادة: وقد نسب إلى ابن مسعود وغيره من السلف كانوا يريدون في نصّ
الوحي لغرض الإيضاح ورفع الإبهام من لفظ الآية. لا عقيدة بأنّها من النصّ القرآني،
الأمر الذي لا بأس به مع التزام الشرط وعدم الالتباس.

وهكذا نجد زيادات تفسيرية في المأثور عن الأئمّة الصادقين عليهم السلام.
ولم نجد من زعم زيادة في النصّ الموجود سوى ما يحكى عن العجاردة (أصحاب
عبد الكريم بن عجرد من زعماء الخوارج) أنّهم أنكروا أن تكون سورة يوسف من
القرآن، وكانوا يرون أنّها قصّة عشق لا يجوز أن تكون من الوحي⁽⁴⁾ ولهم مقالات
فاسدة غير ذلك⁽⁵⁾.

(1) سورة الزمر، الآية 28.

(2) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 4، ص 856، ح 1.

(3) راجع: تفسير البلاغي (آلاء الرحمن)، ج 2، ص 134.

(4) الملل والنحل للشهرستاني، ج 1، ص 128.

(5) راجع مقالات الإسلاميين، ج 1، ص 178.

نعم كان ممّا اشتبه على ابن مسعود زعمه من المعوّذتين أنّهما تعويذان وليستا من القرآن وكان يقول: لا تخلطوا بالقرآن ما ليس منه، وكان يحكّهما من المصحف⁽¹⁾.

6. التحريف بالنقص: إمّا بقراءة النقص، كما أثر عن ابن مسعود أنّه كان يقرأ: «والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى والذكر والأنثى» باسقاط «ما خلق»⁽²⁾ وعن الأعمش أنّه كان يقرأ: «حم سق» باسقاط «ع» قيل: وهكذا قرأ ابن عباس⁽³⁾.

أو بزعم أنّ في النصّ الحاضر سقطاً، كان عن القرآن فأسقط إمّا عن عمد أو عن نسيان وهذا إمّا في حرف واحد أو كلمة أو جملة كاملة أو آية أو سورة كما زعم.

وكلّ ذلك ورد مأثوراً في أمّهات الكتب الحديثية كالصحيح الست وغيرهما.

الأمر الذي ننكره أشدّ الإنكار وهو الذي وقع الكلام حوله في مسألة تحريف الكتاب. ولا مجال لتغيير العبارة والقول بأنّه من منسوخ التلاوة أو منسيها. كما التزم به بعض أئمة أهل السنة فإنّه من الالتواء في التعبير، وتغيير العنوان لا يغيّر من الواقع المعنون. وهو موضع بحثنا هنا.

ومجمل القول في ذلك: أنّ ما ورد بهذا الشأن من الروايات العامية الإسناد لا تعدو كونها من اصطناع أهل الزنادقة ومن صنع الوضّاعين المعروفين بالكذب والاختلاق. أو أنّ لها تأويلاً صحيحاً لا يمسّ جانب تحريف الكتاب. وإلّا فهي أوهام وخرافات سلفية لا اعتبار بشأنها أصلاً، والأكثر إنّما هو هذا القبيل.

دلّنا على دحض شبهة التحريف

1. بديهة العقل:

من بديهة العقل أنّ مثل القرآن الكريم يجب أن يسلم عن احتمال أيّ تغيير أو تبديل فيه، حيث إنّ كان الكتاب الذي وقع - من أوّل يومه - موضع عناية أمّة كبيرة واعية، ولا عجب فإنّه المرجع الأوّل لجميع شؤونهم في الحياة الدنيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، فكان أساس الدين

(1) فتح الباري بشرح البخاري: ج 8، ص 571.

(2) صحيح البخاري، ج 6، ص 221، وح 5، ص 35.

(3) الطبرسي، مجمع البيان، ج 9، ص 21.

ومبنى الشريعة وركن الإسلام. وهو المنبع الأصل لأمهات مسائل فروع الدين وأصوله. ومن ثمّ كان الجميع في حراسته والمواظبة على سلامته وبقائه مع الخلود. هكذا استدلّ الشريف المرتضى علم الهدى، والشيخ الكبير كاشف الغطاء. قال شيخ الفقهاء، الشيخ جعفر الكبير كاشف الغطاء: وما ورد من أخبار النقيصة تمنع البديهة من العمل بظاهرها ولا سيّما ما فيه من نقص ثلث القرآن أو كثير منه. فإنّه لو كان ذلك لتواتر نقله، لتوفّر الدواعي عليه ولا تتخذ غير أهل الإسلام من أعظم المطاعن على الإسلام وأهله...

ثم قال: كيف يكون ذلك وكانوا شديدي المحافظة على ضبط آياته وحروفه، وخصوصاً ما ورد أنّه صُرح فيه بأسماء كثير من المنافقين؟ وكيف يمكن ذلك وكان من حكمة النبي ﷺ استر عليهم ومعاملتهم معاملة أهل الدين...؟⁽¹⁾ وأخيراً قال: يا للعجب من قوم يزعمون سلامة الأحاديث وبقائها محفوظة، وهي دائرة على الألسن ومنقولة في الكتب، في مدّة ألف ومائتي سنة، وأنّها لو حدث فيها نقص لظهر واستبان وشاع، لكنهم يحكمون بنقص القرآن، وخفي ذلك في جميع الأزمان...⁽²⁾.

2. ضرورة تواتر القرآن:

من الدلائل ذوات الشأن الداخلة لشبهة التحريف هي مسألة «ضرورة كون القرآن متواتراً» في مجموعه وفي أبعاضه، في سوره وآياته، حتّى في جملة التركيبية وفي كلماته وحروفه بل وحتى في قراءته وهجائه على ما أسلفنا في بحث القراءات، وقلنا إنّ الصحيح من القراءات هي القراءة المشهورة التي عليها جمهور المسلمين وقد انطبقت على قراءة عاصم برواية حفص.

فإنّ هذا ممّا يرفض احتمال التحريف نهائياً، لأنّ ما قيل بسقوطه وأنّه كان قراناً يتلى إنّما نُقل إلينا بخبر الواحد، وهو غير حجة في هذا الباب، حتّى لو فرض صحّة إسناده. هكذا استدلّ العلامة الحلّي⁽³⁾ وجماعة من المحقّقين كالسيد المجاهد محمد بن علي

(1) كشف الغطاء: كتاب القرآن من كتاب الصلاة، المبحث السابع والثامن، ص 298. 299.

(2) عن كتابه «الحق المبين»، ص 11، ونقله القاضي الطباطبائي في هامش الأنوار، ج 2، ص 359.

(3) راجع: البرهان للبروجردي، ص 111.

الطباطبائي⁽¹⁾ والفقير المحقق المولى أحمد الأردبيلي⁽²⁾ والمحقق المتبّع السيد محمد الجواد العاملي وغيرهم.

3. مسألة الإعجاز:

مما يتنافى واحتمال التحريف في كتاب الله هي مسألة الإعجاز المتحدّى به. وقد اعتبره العلماء من أكبر الدلائل على نفي التحريف.

أمّا احتمال الزيادة، كما احتمله أصحاب ابن العجرد من الخوارج، قالوا بزيادة سورة يوسف في القرآن، لأنها قصّة عشق ولا يجوز أن تكون وحياً⁽³⁾. وكما زعمه ابن مسعود بشأن سورتي المعوذتين⁽⁴⁾، فهذا كله احتمال باطل، إذ يستدعي ذلك أن يكون باستطاعة البشرية أن تقوم بإنشاء سورة كاملة تماثل سور القرآن تماماً. وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾⁽⁵⁾.

وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾⁽⁶⁾ وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ ﴾⁽⁷⁾. وقال: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾⁽⁸⁾.

فهذا التحدي الصارخ يبطل دعوى كل زيادة في سور القرآن وآياته الكريمة. وكذا احتمال التبديل، فإنّ المتبدّل لا يكون من كلامه تعالى وإنّما هو من كلام مبدلّه والكلام يسند إلى قائله إذا كان مجموع الكلمات مستندة إليه لا البعض دون البعض. إذن فاحتمال التبديل ولو في بعض كلمات القرآن يبطل إسناد مجموع الكتاب إليه سبحانه وتعالى.

(1) راجع: البرهان للبروجدي، ص 120 . 121.

(2) راجع: مجمع الفائدة، ج 2، ص 218.

(3) الملل والنحل للشهرستاني، ج 1، ص 128.

(4) ابن حجر، فتح الباري، ج 8، ص 571.

(5) سورة الإسراء، الآية 88.

(6) سورة هود، الآية 13.

(7) سورة يونس، الآية 38.

(8) سورة البقرة، الآية 23.

ومن ذلك تعلم فساد ما قيل في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (1) إنها متبدلة من «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ...»، كما زعمه الشيخ النوري والسيد الجزائري (2) وغيرهما. وزعموا في كثير من كلمات قرآنية مثل ذلك وقالوا: ومثل هذا كثير (3). كل ذلك باطل لأنه ورد بخبر واحد وهو غير حجة في باب القطعيات. وهكذا التبديل الموضوعي يخلّ بنظم الكلام المبتني على الإعجاز نظاماً وأسلوباً... قالوا. في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ (4). إنها متغيرة من «ويتلوه شاهد منه إماماً ورحمة ومن قبله كتاب موسى» قالوا: تقدّم حرف على حرف فذهب معنى الآية (5) حسب زعمهم. ومثله النقص بإسقاط كلمة أو كلمات ضمن جملة واحدة، أنها إذا كانت منتظمة في أسلوب بلاغي بديع، فإن حذف كلمات منها سوف يؤدي إلى إخلال في نظمها ويذهب بروعتها الأولى ولا يدع مجالاً للتحدي بها. الأمر الذي غفل عنه زاعمو التحريف. زعموا إسقاط اسم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من مواضع من القرآن (6)، ذهولاً عن أنه لو أثبتناه في تلك المواضع لذهب عنها تلك الروعة الراهنة، في حين لا حاجة إلى ذكر الاسم، وإنما هو بيان شأن النزول لا غير. وأسخف مزعومة زعمها هؤلاء هي سقط أكثر من ثلث القرآن. أي ما يزيد على ألفي آية من خلال آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتْمَانِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتًى وَتِلْكَ وَرُبِعٌ﴾ (7). زعموا عدم تناسبها مع ذيلها. فهناك زعموا سقطاً كثيراً فيما بين الجملتين (8).

(1) سورة آل عمران، الآية 110.

(2) السيد نعمة الله الجزائري، منبع الحياة في حجية قول المجتهدين من الأموات، ص 67.

(3) راجع: فيما نسبوه إلى النعماني، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 90، ص 26.

(4) سورة هود، الآية 17.

(5) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 90، ص 26-27.

(6) راجع: السيد نعمة الله الجزائري، منبع الحياة، ص 67.

(7) سورة النساء، الآية 3.

(8) الجزائري، منبع الحياة، ص 66.

وخلاصة القول: إن زعم التحريف سواء بالزيادة أم النقص أم التبديل يتنافى وموضع القرآن البلاغي المعجز تنافياً بيّناً.

4. آية الحفظ:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾⁽¹⁾. هذه الآية الكريمة ضمنت بقاء القرآن وسلامته عن تطرّق الحدثان عبر الأجيال.

وهو ضمان إلهي لا يختلف ولا يتخلف وعداً صادقاً: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾⁽²⁾.

وهذا هو مقتضى قاعدة اللطف: « يجب على الله تعالى - وفق حكمته في التكليف - فعل ما يوجب تقريب العباد إلى الطاعة وبعدهم عن المعصية ». ولا شك أنّ القرآن هو عماد الإسلام وسنده الباقي بقاء الإسلام، وهو خاتمة الأديان السماوية الباقية مع الخلود. الأمر الذي يستدعي بقاء أساسه ودعامته قيامة مستحكمة لا تتزعزع ولا تتلثم مع عواصف أحداث الزمان. وأجدربيه أن لا يقع عرضة لتلاعب أهل البدع والأهواء، شأن كلّ سند وثيق يبقى، ليكون حجّة ثابتة مع مرّ الأجيال.

وهذا الضمان الإلهي هو أحد جوانب إعجاز هذا الكتاب، حيث بقاؤه سليماً على أيدي الناس وبين أظهرهم، وليس في السماء في البيت المعمور في حقائق مخبوءة وراء الستور. ليس هذا إعجازاً إنما الإعجاز هو حفظه وحراسته في معرض عام وعلى ملاء الأَشهاد.

فمن سفه القول ما عساه يقول أهل التحريف: « إنه تعالى يحفظ القرآن في المواضع الذي أنزله فيه. كما كان محفوظاً في المحل الأعلى قبل نزوله. والقرآن إنما نزل به جبرئيل على قلب سيّد المرسلين ليكون من المنذرين، فمحلّه الذي أنزله تعالى فيه ووعدّه حفظه، هو قلبه الشريف، لا الصحف والدفاتر ولا غير صدره ﷺ من الضمائر...»⁽³⁾.

(1) سورة الحجر، الآية 9.

(2) سورة الرعد، الآية 31.

(3) راجع: الشيخ النوري، فصل الخطاب، ص 360.

هذا. وقد ذكر أهل التفسير. بشأن نزول الآية. أنه ﷺ إنما كان يخشى تلاعب أهل الأهواء بالقرآن من بعده، كما فعلوا بكتب الأنبياء السالفين. فنزلت الآية تطمئنه على حفظه وحرصته عن تناوش الأعداء خلوداً مع الأبد⁽¹⁾ وقرينة السياق أيضاً شاهدة على هذا المعنى.

5. نفي الباطل عنه:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِنْتُبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢﴾.

هذه الآية أصرح دلالة من الآية الأولى، فقد وعد تعالى صيانته من الضياع وسلامته من حوادث الأزمان، مصوناً محفوظاً يشق طريقه إلى الأمام بسلام. قوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، الباطل: الفاسد الضائع: أي لا يعرضه فساد أو نقص لا في حاضره ولا في مستقبل الأيام. وذلك لأنه ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ﴾ لدن ﴿حَكِيمٍ﴾، وأن حكمته تعالى لتبعث على ضمان حفظه وحرصته مع أبدية الإسلام. ﴿حَمِيدٍ﴾، من كان محموداً على فعاله فلا يخلف الميعاد.

وقد اعترف الخصم بأن مطلق التغيير في القرآن يُعدّ باطلاً وتنافياً مع ظاهر الآية الكريمة. سوى أن المقصود غير هذا المعنى؛ قال: لأن المقصود هو البطلان الحاصل من تناقض أحكامه وتكاذب أخباره⁽³⁾.

قلت: لعله لم يتبّه لموضع قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ﴾. والباطل الذي يُمكن إتيانه للكتاب هو تناول يد المحرّفين ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾⁽⁴⁾.

أما التناقض والتكاذب في أحكامه وإخباراته فهو من الباطل المنبعث من الداخل، وقد نفاه تعالى أيضاً بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾⁽⁵⁾.

ومن ثمّ أطبق المفسّرون على أنّ آية نفي الباطل هي من أصرح الآيات دلالة على نفي احتمال التحريف من الكتاب فلا تناله يد مغيّر أبداً.

(1) وقد أشار إليه المحدث النوري في فصل الخطاب، ص 361.

(2) سورة فصلت، الأيتان 41 و 42.

(3) الشيخ النوري، فصل الخطاب، ص 361.

(4) سورة الحجر، الآية 91.

(5) سورة النساء، الآية 82.

المفاهيم الرئيسة

- للتحريف عدّة وجوه:
 - تحريف بمدلول الكلام ، تحريف قرائي، تحريف في لهجة التعبير، تحريف بتبديل الكلم، التحريف بالزيادة، التحريف بالنقص.
- إن ما ورد بشأن تحريف القرآن من الروايات العامية الإسناد لا تعدو كونها من اصطناع أهل الزنادقة ومن صنع الوضّاعين المعروفين بالكذب والاختلاق. أو أنّ لها تأويلاً صحيحاً لا يمسّ جانب تحريف الكتاب. والأفهي أوهام وخرافات سلفية لا اعتبار بشأنها أصلاً، والأكثر إنّما هو من هذا القبيل.
- الدلائل على دحض شبهة التحريف:
 1. بديهية العقل.
 2. ضرورة تواتر القرآن.
 3. مسألة الإعجاز.
 4. آية الحفظ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.
 5. نفي الباطل عنه: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِنْتَبُ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

للمطالعة

العرض على كتاب الله

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ عَلَى كُلِّ حَقِيقَةٍ وَعَلَى كُلِّ صَوَابٍ نُورًا، فَمَا وَاظَفَ كِتَابَ اللَّهِ فَخَذُوهُ وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ فَدَعَوْهُ»⁽¹⁾.

الأمر الذي يتنافى تماماً مع احتمال التحريف في كتاب الله، وذلك من جهتين: الجهة الأولى: أن المعروض عليه يجب أن يكون مقطوعاً به، لأنه المقياس الفارق بين الحق والباطل ولا موضع للشك في نفس المقياس.

إذن فلو عرضت روايات التحريف على نفس ما قيل بسقوطه لتكون موافقة له، فهذا عرض على المقياس المشكوك فيه، وهو دور باطل. وإن عرضت على غيره فهي تخالفه، قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾⁽²⁾ وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾⁽³⁾.

الجهة الثانية: إن العرض لا بد أن يكون على هذا الموجود المتواتر لدى عامة المسلمين لما ذكرناه - في الجهة الأولى - من أن المقياس لا بد أن يكون متواتراً مقطوعاً به. وروايات التحريف إذا عرضت على هذا الموجود بأيدينا كانت مخالفة له، لأنها تنفي سلامة هذا الموجود وتدل على أنه ليس ذلك الكتاب النازل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا تكذيب صريح للكتاب ومخالفة عارمة مع القرآن.

هكذا استدلل المحقق الثاني (الكركي)⁽⁴⁾ والسيد محمد مهدي الطباطبائي (بحر العلوم)⁽⁵⁾.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 69، باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب.

(2) سورة فصلت، الآية 42.

(3) سورة الحجر، الآية 9.

(4) بنقل السيد شارح الوافية، أنظر: البرهان للبروجدي، ص 116 - 117.

(5) بنقل البروجدي في البرهان، ص 118 - 120.

لكن زعم المحدث النوري أن لا منافاة بين أخبار العرض ووقوع التحريف في القرآن: فإنَّ الأمر بالعرض على كتاب الله صدر من رسول الله ﷺ حال حياته أمَّا وقوع السقط والتبديل فإنَّما حصل بعد وفاته⁽¹⁾.

وهذا كلام غريب، إذ أحاديث العرض لا يختصَّ صدورها عن الرسول ﷺ بل نطق بها - دستوراً عاماً - الأئمة المعصومون بعده أيضاً.

ثمَّ إنَّ النبي ﷺ قال ذلك خشية وفور الكذّابة بعده، فبيّن للأمة على طول الدهر معياراً يقيسون عليه السليم من السقيم من أحاديثه المنسوبة إليه، وليس علاجاً مؤقتاً خاصاً بحال حياته صلوات الله عليه.

(1) راجع: الشيخ النوري، فصل الخطاب، ص 362 . 363.

المحور الثالث

دروس في التفسير

الدرس الثالث عشر

تفسير سورة الفاتحة (1)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يتعرّف على خصائص سورة الفاتحة.
- 2 . يفهم معاني آيات السورة إجمالاً.
- 3 . يشرح معاني مفردات: الحمد، الرحمن الرحيم، الرب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

خصائص سورة الفاتحة

لهذه السّورة مكانة متميّزة بين سور القرآن الكريم. وتبدأ هذه السّورة - بعد البسملة - بحمد الله والثناء عليه، وتستمرّ في إقرار الإيمان بالمبدأ والمعاد «بالله ويوم القيامة»، وبحصر العبادة والاستعانة بالله تعالى، وتنتهي بالتضرّع والطلب للهداية، والتبرؤ من أهل الضلالة والغواية..

سورة الحمد أساس القرآن: فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: «ألا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟ قال جابر: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله، علمنيها. فعلمه الحمد أم الكتاب، وقال: «هي شفاء من كل داء، إلا السّام، والسّام الموت»⁽¹⁾.

أم الكتاب: وروي عنه ﷺ أيضاً أنه قال: «والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التّوراة، ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلاً، وهي أم الكتاب»⁽²⁾.

(1) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 6، ص 232.

(2) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج 4، ص 332.

أهميتها

أهمية هذه السورة تتضح من محتواها، فهي في الحقيقة عرض لكل محتويات القرآن، فجانبا منها يختص بالتوحيد وصفات الله، وجانب آخر بالمعاد ويوم القيامة، وقسم منها يتحدث عن الهداية والضلال باعتبارهما علامة التمييز بين المؤمن والكافر، وفيها أيضا إشارات إلى حاكمية الله المطلقة، وإلى مقام ربوبيته، ونعمه اللامتناهية العامة والخاصة الرحمانية والرحيمية، وإلى مسألة العبادة والعبودية واختصاصهما بذات الله دون سواه. إنها تتضمن في الواقع توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد العبادة. وبعبارة أخرى: تتضمن هذه السورة مراحل الإيمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. ومن المعلوم أن لفظ «الأم» يعني هنا الأساس والجذر.

محتوى السورة

ويمكن تقسيم هذه السورة، من منظار آخر، إلى قسمين: قسم يختص بحمد الله والثناء عليه، وقسم يتضمن حاجات العبد.

وإلى هذا التقسيم يشير الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ:

«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَمْتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: بَدَأَ عَبْدِي بِاسْمِي وَحَقُّ عَلَيَّ أَنْ أُتِمَّ لَهُ أُمُورُهُ وَأُبَارَكَ لَهُ فِي أحوَالِهِ.

فَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: حَمَدَنِي عَبْدِي وَعَلِمَ أَنَّ النِّعَمَ الَّتِي لَهُ مِنْ عِنْدِي، وَأَنَّ الْبَلَايَا الَّتِي دَفَعْتُ عَنْهُ فَبَتَطَوُّلِي، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي أُضِيفُ لَهُ إِلَى نِعَمِ الدُّنْيَا نِعَمَ الْآخِرَةِ، وَأَدْفَعُ عَنْهُ بَلَايَا الْآخِرَةِ كَمَا دَفَعْتُ عَنْهُ بَلَايَا الدُّنْيَا.

وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: شَهِدَ لِي عَبْدِي أَنَّ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ، أُشْهِدُكُمْ لِأَوْفَرِنَ مِنْ رَحْمَتِي حَظَّهُ وَلَا أُجْزِلُنَ مِنْ عَطَائِي نَصِيْبَهُ.

فَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أُشْهِدُكُمْ كَمَا اعْتَرَفَ بَأَنِّي أَنَا مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ لِأَسْهَلُنَ يَوْمَ الْحِسَابِ حِسَابَهُ، وَلَا تُقْبَلُنَ حَسَنَاتُهُ، وَلَا تُجَاوِزُنَ عَنْ سَيِّئَاتِهِ.

فَإِذَا قَالَ: ﴿وَيْلَاكَ نَبُذٌ﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: صَدَقَ عَبْدِي، إِيَّايَ يَعْبُدُ أَشْهَدُكُمْ لِأَثْبِينَهُ عَلَى عِبَادَتِهِ ثَوَابًا يَغْبِطُهُ كُلُّ مَنْ خَالَفَهُ فِي عِبَادَتِهِ لِي.

فَإِذَا قَالَ: ﴿وَيْلَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بِي اسْتَعَانَ عَبْدِي، وَإِلَيَّ التَّجَاءَ، أَشْهَدُكُمْ لِأَعْيُنِنَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَلَا أُغَيِّنُهُ فِي شِدَائِهِ وَلَا أُخَذِّنُ بِيَدِهِ يَوْمَ نَوَائِبِهِ.

فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ وَقَدْ اسْتَجَبْتُ لِعَبْدِي وَأَعْطَيْتُهُ مَا أَمَلَ وَأَمَنْتُهُ مِمَّا مِنْهُ وَجَلَّ⁽¹⁾.

في رحاب سورة الفاتحة

1. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دأبت الأمم والشعوب على أن تبدأ كل عمل هام ذي قيمة باسم كبير من رجالها. والحجر الأساس لكل مؤسسة هامة يوضع باسم شخصية مرموقة في نظر أصحابها، أي أن أصحاب المؤسسة يبدؤون العمل باسم تلك الشخصية.

ولكن، أليس من الأفضل أن يبدأ العمل في أطروحة أريد لها البقاء والخلود باسم وجود خالد قائم لا يعتريه الفناء؟ فكل ما في الكون يتجه إلى الزوال والفناء، إلا الذات الأبدية الخالدة... ذات الله سبحانه.

إن خلود ذكر الأنبياء سببه ارتباطهم بالله وبالقيم الإنسانية الإلهية الخالدة كالعدالة وطلب الحقيقة، وخلود اسم رجل في التاريخ مثل «حاتم الطائي» يعود إلى ارتباطه بواحدة من تلك القيم هي «السخاء».

صفة الخلود والأبدية يختص بها الله تعالى من بين سائر الموجودات، ومن هنا ينبغي أن يبدأ كل شيء باسمه وتحت ظله وبلاستمداد منه. ولذلك كانت البسملة أول آية في القرآن الكريم.

ولذلك جاء في الحديث النبوي الشريف: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُذْكَرُ اسْمُ اللَّهِ فِيهِ فَهُوَ أَبْتَرُ»⁽²⁾.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام بعد نقله لهذا الحديث الشريف: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ أَوْ

يَعْمَلُ عَمَلًا فَيَقُولُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَإِنَّهُ يُبَارَكُ فِيهِ»⁽³⁾.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 82، ص 60.

(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 7، ص 170.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 243.

وعن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام :
 «... وَيَنْبَغِي الْإِتْيَانُ بِهِ عِنْدَ افْتِتَاحِ كُلِّ أَمْرٍ عَظِيمٍ أَوْ صَغِيرٍ لِيُبَارَكَ فِيهِ»⁽¹⁾.
 بعبارة موجزة: بقاء العمل وخلوده يتوقف على ارتباطه بالله.

2. كلمة: الله

وهي علم للذات الإلهية المقدسة وهي أشمل أسماء رب العالمين، فكل اسم ورد لله في القرآن الكريم وسائر المصادر الإسلامية يُشير إلى جانب معين من صفات الله. والاسم الوحيد الجامع لكل الصفات والكمالات الإلهية أو الجامع لكل صفات الجلال والجمال هو «الله». ولذلك اعتُبرت بقية الأسماء صفات لله تعالى مثل: «الغفور» و«الرحيم» و«السميع» و«العليم» و«البصير» و«الرزاق» و«ذو القوة» و«المتين» و«الخالق».

3. الرحمة الإلهية الخاصة والعامة

المشهور بين جماعة من المفسرين أن صفة «الرحمن» تُشير إلى الرحمة الإلهية العامة، وهي تشمل الأولياء والأعداء، والمؤمنين والكافرين، والمحسنين والمسيئين، فرحمته تعم المخلوقات، وخوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات، وكل العباد يتمتعون بموهبة الحياة، وينالون حظهم من مائدة نعمه اللامتناهية. وهذه هي رحمة العامة الشاملة لعالم الوجود كافة وما فيه من كائنات.

وصفة «الرحيم» إشارة إلى رحمة الخاصة بعباده الصالحين المطيعين، قد شملتهم بإيمانهم وعملهم الصالح، وحُرم منها المنحرفون والمجرمون.

وفي رواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «وَاللَّهُ إِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ الرَّحْمَنُ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، الرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً»⁽²⁾.

4. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

بعد البسملة، أول واجبات العباد أن يستحضروا دوماً مبدأ عالم الوجود، ونعمه اللامتناهية، هذه النعم التي تحيطنا وتغمر وجودنا، وتهدينا إلى معرفة الله من جهة،

(1) الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، ج 1، ص 82.

(2) الكليني، الكافي، ج 1، ص 114.

وتدفعنا إلى طريق العبودية من جهة أخرى.

وعندما نقول إن النعم تشكل دافعاً ومحركاً إلى طريق العبودية فذلك، لأن الإنسان مفطور على البحث عن صاحب النعمة حينما تصله النعمة، ومفطور على أن يشكر المنعم على إنعامه.

من هنا فإن علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرقون في بحوثهم الأولية لهذا العلم إلى «وجوب شكر المنعم» باعتباره أمراً فطرياً وعقلياً دافعاً إلى معرفة الله سبحانه. وإنما قلنا إن النعم تهدينا إلى معرفة الله، لأن أفضل طريق وأشمل سبيل لمعرفته سبحانه، دراسة أسرار الخليفة، وخاصة ما يرتبط بوجود النعم في حياة الإنسان. خط التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء ﷺ يتميز بنبذ فكرة الأرباب المتعددين، وهداية البشرية نحو الإله الواحد الأحد، وانطلاقاً من هذه الأهمية القصوى للقضاء على الآلهة المتعددة جاء التأكيد القرآني بعد آية البسملة بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وبهذا يرسم القرآن الكريم خط البطلان على جميع الأرباب المزيّفين، ويغرس محلها أزهار التوحيد والاتحاد.

هذا التأكيد يتلوه الإنسان المسلم عشر مرات في صلواته اليومية - على الأقل - لتترسخ فكرة التوحيد، وفكرة رفض ربوبية كل الأرباب المدعاة، غير ربوبية الله رب العالمين. ربوبية الله طريق لمعرفة الله.

كلمة (الرب)، وإن كانت تعني في الأصل المالك والساحب، إلا أنها تتضمن أيضاً معنى الساحب المتعهد بالتربية والرعاية.

وإمعان النظر في المسيرة التكاملية للموجودات الحية، وفي التغييرات والتحوّلات التي تجري في عالم الجماد، وفي الظروف التي تتوفر لتربية الموجودات، وفي تفاصيل هذه الحركات والعمليات، هو أفضل طريق لمعرفة الله. والتنسيق اللاإرادي بين أعضاء جسدنا هو نموذج حي لذلك.

يقول تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (1).

(1) سورة فصلت، الآية 53.

المفاهيم الرئيسية

- من خصائص سورة الحمد أنّها أساس القرآن وأمّ الكتاب.
- أهميّة هذه السّورة تتّضح من محتواها، فهي في الحقيقة عرض لكلّ محتويات القرآن من توحيد ومعاد وهداية وضلال.
- تتضمّن هذه السّورة مراحل الإيمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. ويُمكن تقسيم هذه السّورة، من منظار آخر، إلى قسمين: قسم يختصّ بحمد الله والثناء عليه، وقسم يتضمّن حاجات العبد.

الدرس الرابع عشر

تفسير سورة الفاتحة (2)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يعرف معنى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ.
- 2 . يفهم صفات أهل الهدى وأهل الضلال.
- 3 . يشرح صفات المغضوب عليهم.

1. مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ

هذه الآية تُلَفَّتْ الأنظار إلى أصل هام آخر من أصول الإسلام، هو يوم القيامة: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وبذلك يكتمل محور المبدأ والمعاد، الذي يُعتبر أساس كل إصلاح أخلاقي واجتماعي في وجود الإنسان.

تعبير ﴿مَلِكِ﴾ يوحي بسيطرة الله التامة وهيمنته المستحكمة على كل شيء وعلى كل فرد في ذلك اليوم، حيث تحضر البشرية في تلك المحكمة الكبرى، وتقف أمام مالكتها الحقيقي للحساب، وترى كل ما فعلته وقاتله، بل وحتى ما فكرت به، حاضراً..

الإيمان بيوم القيامة، وبتلك المحكمة الإلهية الكبرى التي يخضع فيها كل شيء للإحصاء الدقيق، له الأثر الكبير في ضبط الإنسان أمام الزلاّت، ووقايته من السقوط في المنحدرات. وأحد أسباب قدرة الصلاة على النهي عن الفحشاء والمنكر هو أنها تُذكّر الإنسان بالمُبدئ المطلع على حركاته وسكناته، وتُذكره أيضاً بمحكمة العدل الإلهي الكبرى.

التركيز على مالكية الله ليوم القيامة يُقارِع من جهة أخرى معتقدات المشركين ومنكري المعاد، لأن الإيمان بالله عقيدة فطرية عامّة، حتى لدى مشركي العصر الجاهلي، وهذا ما يوضّحه القرآن إذ يقول: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (1)

بينما الإيمان بالمعاد ليس كذلك، فهؤلاء المشركون كانوا يواجهون مسألة المعاد بعناد واستهزاء ولجاج: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَدْعُهُمْ إِذَا مَرِضْتُمْ كُلٌّ مِّمَّنَّ لِنَفْسٍ أَوْ لِلْأَعْرَابِ لَئِنْ أَمْرٌ لَّآلِهَتُكُمْ يَغْتَابُ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ يَصِفُونَ أَمْ يَخْلُقُوهُمْ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْلِكُ مَا يَشَاءُونَ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَسْمَانُ فَاتُونَ النَّاسَ يَوْمَ يُنْفَخُ السَّمَاءُ كِذِّبًا أَمْ يَحِجُّهُمْ﴾ (2).

(1) سورة الزمر، الآية 38.

(2) سورة سبأ، الآيتان 7 و 8.

وروي عن الإمام عليّ بن الحسين السّجّاد عليه السلام: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يَكْرُرُهَا حَتَّى يَكَادَ أَنْ يَمُوتَ»⁽¹⁾.

أمّا تعبير ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾، فحيثما ورد في القرآن يعني يوم القيامة، وتكرّر ذلك في أكثر من عشرة مواضع من كتاب الله العزيز، وفي الآيات 17 و 18 و 19 من سورة الانفطار ورد هذا المعنى بصراحة.

وأما سبب تسمية هذا اليوم بيوم الدين، فلأنّ يوم القيامة يوم الجزاء، و«الدين» في اللغة «الجزاء»، والجزاء أبرز مظاهر القيامة، ففي ذلك اليوم تُكشف السرائر ويحاسب النَّاسُ عمّا فعلوه بدقّة، ويرى كلّ فرد جزاء ما عمله صالحاً أم طالحاً.

وفي حديث عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام يقول: «يَوْمُ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ»⁽²⁾، و«الدين» استناداً إلى هذه الرواية يعني «الحساب».

2. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

في هذه الآية يتغيّر لحن السّورة، إذ يبدأ فيها دعاء العبد لربّه والتضرّع إليه. الآيات السابقة دارت حول حمد الله والثناء عليه، والإقرار بالإيمان والاعتراف بيوم القيامة. وفي هذه الآية يشعر الإنسان - بعد رسوخ أساس العقيدة ومعرفة الله في نفسه - بحضوره بين يدي الله... يُخاطبه ويُناجيه، ويُقرّ أولاً بتعبده، ثمّ يستمدّ العون منه وحده دون سواه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

بعبارة أخرى: عندما تتعمّق مفاهيم الآيات السابقة في وجود الإنسان، وتتورّج روحه بنور ربّ العالمين، ويُدرك رحمة الله العامّة والخاصّة، ومالكيتته ليوم الجزاء، يكتمل الإنسان في جانبه العقائديّ. وهذه العقيدة التوحيدية العميقة، ذات عطاء يتملّ.

أولاً: في تربية الإنسان العبد الخالص لله، المتحرّر من العبودية للآلهة الخشبية والبشرية والشهوية.

ثانياً: في الاستمداد من ذات الله تبارك وتعالى خاصّة دون غيره.

(1) البحر العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص152.

(2) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص38.

الآيات السابقة تحدّث في الحقيقة عن توحيد الذات والصفات، وهذه الآية تتحدّث عن توحيد العبادة وتوحيد الأفعال.

ومعنى هذا التوحيد أنّ الله هو المؤثر الحقيقي في العالم (لَا مُؤَثَّرَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ). وهذا لا يعني إنكار عالم الأسباب، وتجاهل المسببات، بل يعني الإيمان بأنّ تأثير الأسباب إنّما كان بأمر الله، فالله سبحانه هو الذي يمنح النار خاصية الإحراق، والشمس خاصية الإنارة، والماء خاصية الإحياء.

ثمرة هذا الاعتقاد أنّ الإنسان يُصبح معتمداً على (الله) دون سواه، ويرى أنّ الله هو القادر العظيم فقط، ويرى ما سواه شبحاً لا حول له ولا قوة بل لا يرى شيئاً غير الله، وهو وحده سبحانه اللائق بالاتكال والاعتماد عليه في كلّ الأمور. وبالتالي هو الواحد الذي يستحقّ العبادة فلا معبود سواه.

3. أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

بعد أن يُقرّ الإنسان بالتسليم لربّ العالمين، ويرتفع إلى مستوى العبودية لله والاستعانة به تعالى، يتقدّم هذا العبد بأول طلب من بارئته، وهو الهداية إلى الطريق المستقيم، طريق الطهر والخير، طريق العدل والإحسان، طريق الإيمان والعمل الصالح، ليهبه الله نعمة الهداية كما وهبه جميع النعم الأخرى.

الإنسان في هذه المرحلة مؤمن طبعاً وعارف بربه، لكنّه معرض دوماً بسبب العوامل المضادة إلى سلب هذه النعمة والانحراف عن الصراط المستقيم. من هنا كان عليه لزاماً أن يُكرّر عشر مرّات في اليوم على الأقلّ طلبه من الله أن يقيه العثرات والانحرافات.

أضف إلى ما تقدّم أنّ الصراط المستقيم هو دين الله، وله مراتب ودرجات لا يستوي في طيها جميع الناس، ومهما سما الإنسان في مراتبه، فثمّة مراتب أخرى أبعد وأرقى، والإنسان المؤمن تواقّ دوماً إلى السير الحثيث على هذا السلم الارتقائي، وعليه أن يستمدّ العون من الله في ذلك.

عن الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، في تفسير: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: أي: «أدّم لنا توفيقك الذي أطعناك به في ما مضى من أيامنا، حتّى نطيعك في مستقبل أعمارنا»⁽¹⁾.

(1) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص 33.

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «يَعْنِي أَرْشَدَنَا لِلزُّومِ الطَّرِيقَ الْمُؤَدِّيَ إِلَى مَحَبَّتِكَ، وَالْمُبْلَغَ إِلَى جَنَّتِكَ، وَالْمَانِعَ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَهْوَاءَنَا فَنَعُطِبَ، أَوْ أَنْ نَأْخُذَ بِأَرَائِنَا فَنَهْلِكَ»⁽¹⁾.

4. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

خطان منحرفان!

هذه الآية تفسير واضح للصراط المستقيم المذكور في الآية السابقة، إنه صراط المشمولين بأنواع النعم (مثل نعمة الهداية، ونعمة التوفيق، ونعمة القيادة الصالحة، ونعمة العلم والعمل والجهاد والشهادة) لا المشمولين بالغضب الإلهي بسبب سوء فعالهم وزيف قلوبهم، ولا الضالعين التائهين عن جادة الحق والهدى.

ولأننا لسنا على معرفة تامة بمعالم طريق الهداية، فإن الله تعالى يأمرنا في هذه الآية الكريمة أن نطلب منه هدايتنا إلى طريق الأنبياء والصالحين من عباده: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ويحذرننا كذلك من أن أمامنا طريقين منحرفين، وهما طريق ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وطريق: ﴿الضَّالِّينَ﴾، وبذلك يتبين للإنسان طريق الهداية بوضوح.

1. من هم ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؟

تبيّن الآية الكريمة من سورة النساء من هم الذين أنعم الله عليهم، إذ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾⁽²⁾.

والآية تقسم الذين أنعم الله عليهم إلى أربعة مجاميع: الأنبياء، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين.

2. من هم ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ومن هم ﴿الضَّالِّينَ﴾؟

يتّضح من الآية الكريمة أنّ ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و ﴿الضَّالِّينَ﴾ مجموعتان لا مجموعة واحدة، وأمّا الفرق بينهما:

(1) م. س، ص 34.

(2) سورة النساء، الآية 69.

فإنه يُستفاد من استعمال التعبيرين في القرآن أنّ «المغضوب عليهم» أسوأ وأحطّ من «الضّالّين»، أي إنّ الضّالّين هم التّاهون العاديّون، والمغضوب عليهم هم المنحرفون المعاندون، أو المنافقون، ولذلك استحقّوا لعن الله وغضبه.

قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ (1).

وقال سبحانه: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ

ظُنُّوا السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ (2).

﴿المَغضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ إذا يسلكون - إضافة إلى كفرهم - طريق اللجاج والعناد ومعاودة

الحقّ، ولا يألون جهداً في توجيه ألوان التنكيل والتعذيب لقادة الدعوة الإلهية.

يقول سبحانه: ﴿وَبَاءَ وَبِعَضِّ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ

النَّبِيَّاتِ بغيرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (3).

(1) سورة النحل، الآية 106.

(2) سورة الفتح، الآية 6.

(3) سورة البقرة، الآية 61.

المفاهيم الرئيسية

في هذه السورة المباركة يكون الإنسان بين يدي الله، فهو مالك يوم الدين أي يوم الحساب، يُخاطبه ويُناجيه، يتحدث إليه أولاً عن تعبده، ثم يستمدّ العون منه وحده دون سواه قائلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

ويسأله الهداية: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ؛ أي طريق الطهر والخير، طريق العدل والإحسان، طريق الإيمان والعمل الصالح، الذي هو طريق الأنبياء والصالحين من عباده لا طريق المغضوب عليهم والضالين.

الدرس الخامس عشر

تفسير سورة الضحى

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يعرف سبب نزول سورة الضحى .
- 2 . يشرح معاني مفردات سورة تفسير .
- 3 . يفهم فلسفة شكر الله على نعمائه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا
فَأَغْنَىٰ (٨) فَمَا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

في رحاب السّورة

هذه السّورة نزلت في مكّة. وحسب بعض الروايات أنّها نزلت حين كان الرّسول ﷺ متألّماً بسبب تأخّر نزول الوحي، وتقوّل الأعداء نتيجة هذا الانقطاع المؤقت، نزلت السّورة كغيث على قلب النّبي ﷺ، وأمدّته بطاقة جديدة، وقطعت ألسن الأعداء. هذه السّورة تبدأ بقسمين، ثمّ تبشّر النّبي بأنّ الله لا يتركه أبداً. ثمّ تبشّره بعطاء ربّاني يجعله راضياً، ثمّ تعرض له صوراً من حياته السابقة تتجسّد فيها الرحمة الإلهية التي كانت تشملته دائماً وتحميه وتسندّه في أشدّ اللحظات. وفي نهاية السّورة تتكرّر الأوامر الإلهية برعاية اليتيم والسائل، وبإظهار النعم الإلهية (شكراً لهذه النعم).

سبب النزول

روي عن ابن عباس قال: «احتبس الوحي عن رسول الله ﷺ خمسة عشر يوماً، فقال المشركون إنّ محمداً قد ودّعه ربّه وقلاه، ولو كان أمره من الله تعالى لتتابع عليه، فنزلت السّورة»⁽¹⁾.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 16، ص 136.

التفسير

في بداية السورة المباركة قَسَمَان: الأول بالنور، والثاني بالظلمة، ويقول سبحانه: ﴿وَالصُّحَىٰ﴾ وهو أول النهار حين تغمر شمسه كل مكان. ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي إذا عمّت سكينته كل مكان.

وبين القَسَمَيْن ومحتوى السورة تشابه كبير وارتباط وثيق. النهار مثل نزول نور الوحي على قلب النبي ﷺ، والليل كانقطاع الوحي المؤقت، وهو أيضاً ضروري في بعض المقاطع الزمنية.

وبعد القَسَمَيْن، يأتي جواب القَسَم، فيقول سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

«قلَى» من «قلا» - على وزن صدا، وهو شدة البغض، ومن القلو أيضاً بمعنى الرمي. وكلا المعنيين يعودان إلى أصل واحد فكأن المقلو هو الذي يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله. على أي حال، في هذا التعبير سَكَنَ لقلب النبي ﷺ وتسَلُّ له، ليعلم أن التأخير في نزول الوحي إنما يحدث لمصلحة يعلمها الله تعالى، وليست - كما يقول الأعداء - لترك الله نبيه أو لسخطه عليه. فهو مشمول دائماً بلطف الله وعنايته الخاصة، وهو دائماً في كنف حماية الله سبحانه.

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

أنت في هذه الدنيا مشمول بالطف الله تعالى، وفي الآخرة أكثر وأفضل. أنت آمن من غضب الله في الأمد القريب والبعيد. وباختصار أنت عزيز في الدنيا والآخرة... في الدنيا عزيز وفي الآخرة أعز...

وتأتي البشرية للنبي الكريم ﷺ لتقول له:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾. وهذا أعظم إكرام وأسمى احترام من رب العالمين

لعبد المصطفى محمد ﷺ. فالعطاء الرباني سيغدق عليه حتى يرضى... حتى ينتصر على الأعداء ويعمّ نور الإسلام الخافقين، كما أنه سيكون في الآخرة أيضاً مشمولاً بأعظم الهبات الإلهية.

فلسفة انقطاع الوحي

يتبين من الآيات الكريمة في هذه السورة أنّ النبي ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً إلا من عند الله... لم يكن له اختيار حتى في نزول الوحي. متى ما شاء الله ينزل الوحي ومتى ما شاء ينقطع. ولعل انقطاع الوحي كان ردّاً على أولئك الذين كانوا يطالبون النبي بمعاجز مقترحة وفق أذواقهم، أو كانوا يقترحون عليه تغيير بعض الأحكام والنصوص، وكان ﷺ يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ...﴾⁽¹⁾.

الشكر على كل هذه النعم الإلهية

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾^(٦) و﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾^(٧) و﴿وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾^(٨) فأما الأيتيم فلا نفهر^(٩) وأما السائل فلا نفهر^(١٠) وأما بنعمة ربك فحدث^(١١).

ذكرنا أنّ هدف هذه السورة المباركة تسليية قلب النبي ﷺ وبيان ألطاف الله التي شملته. وهذه الآيات المذكورة أعلاه تجسد للنبي ثلاث هبات من الهبات الخاصة التي أنعم الله بها على النبي، ثم تأمره بثلاثة أوامر.

النعمة الأولى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾

فقد كنت يا محمد في رحم أمك حين توفي والدك فأويتك إلى كنف جدك عبد المطلب «سيد مكة».

وكنت في السادسة حين توفيت والدتك، فزاد يتمك، لكنني زدت حبك في قلب «عبد المطلب».

وكنت في الثامنة حين رحل جدك «عبد المطلب»، فسخرت لك عمك «أبا طالب».

النعمة الثانية: ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾

نعم، لم تكن أيها النبي ﷺ على علم بالنبوة والرسالة⁽²⁾، ونحن أنزلنا هذا النور على قلبك لتهدي به الإنسانية. وهذا المعنى ورد في قوله تعالى أيضاً: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ

(1) سورة يونس، الآية 15.

(2) طبعاً مع الإشارة إلى أنّ النبي ﷺ معصوم منذ الصغر، ولا يغيب عنه شيء، والنبوة والوحي لهما علاقة بعالم الظاهر والإثبات، أمّا في عالم الثبوت فكل شيء موجود لديه.

وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ .
 من الواضح أن النبي ﷺ كان فاقداً لهذا الفيض الإلهي قبل وصوله إلى مقام النبوة،
 فالله سبحانه أخذ بيده وهداه وبلغ به هذا المقام. وإلى هذا تشير الآية (3) من سورة
 يوسف: ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ
 قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (2).

من المؤكد أنه لولا الهداية الإلهية والإمداد الغيبي ما استطاع الرسول ﷺ أن يهتدي
 المسير نحو الهدف المقصود.

من هنا فإن المقصود من الضلالة في كلمة «ضالاً» في الآية ليس نفي الإيمان والتوحيد
 والطهر والتقوى عن النبي، بل بقرينة الآيات التي أشرنا إليها تعني نفي العلم بأسرار النبوة
 وبأحكام الإسلام، وتعني عدم معرفة هذه الحقائق، كما أكد على ذلك كثير من المفسرين.
 لكنه ﷺ بعد البعثة اهتدى إلى هذه الأمور بعون الله تعالى (3).

النعمة الثالثة: ﴿وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى﴾

لقد جعلناك تستأثر باهتمام «خديجة» هذه المرأة المخلصة الوفية لتضع كل ثروتها
 تحت تصرفك من أجل تحقيق أهدافك، وبعد ظهور الإسلام رزقك مغنم كثيرة في الحروب
 ساعدتك في تحقيق أهدافك الرسالية الكبرى.
 ثم في الآيات التالية ثلاثة أوامر تصدر إلى الرسول باعتبارها نتيجة الآيات السابقة.
 والخطاب وإن كان موجهاً إلى الرسول ﷺ، لكنه يشمل أيضاً كل المسلمين.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾

«تقهر» من القهر أي الغلبة مع التحقير، وأيضاً تستعمل في كل واحد من المعنيين، ومعنى
 التحقير هنا هو المناسب.

وهذا يدل على أن هناك مسألة أهم من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهي اللطف بهم
 والعطف عليهم وإزالة إحساسهم بالنقص العاطفي، ولذا جاء في الحديث المعروف عن

(1) سورة الشورى، الآية 52.

(2) سورة يوسف، الآية 3.

(3) الشيرازي، ناصر مكارم، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، ج 20، ص 281.

رسول الله ﷺ: «من مسح يده على رأس يتيم ترحمًا له، كتب الله له بكل شعرة مرت عليه يده حسنة»⁽¹⁾.

كَأَنَّ اللَّهَ يُخَاطَبُ نَبِيَّهُ قَائِلًا: لَقَدْ كُنْتَ يَتِيمًا أُيْسًا وَعَانِيَةً مِنَ أَلَامِ الْيَتَمِ، وَالآنَ عَلَيْكَ أَنْ تَهْتَمَّ بِالْأَيْتَامِ كُلِّ اهْتِمَامٍ وَأَنْ تَرْوِيَ رُوحَهُمُ الظَّمَاىَ بِحَبِّكَ وَعَطْفِكَ.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا نَنْهَرْ﴾

«نَهَرَ» بمعنى ردّ بخشونة

وفي معنى «السائل» عدّة تفاسير.

الأوّل: أنه المتّجه بالسؤال حول القضايا العلميّة والعقائديّة والدينيّة، والدليل على ذلك هو أنّ هذا الأمر تفرّج على ما جاء في الآية السابقة: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، فشكر هذه الهداية الإلهيّة يقتضي أن تسعى أيّها النّبىّ في هداية السائلين، وأن لا تطرد أيّ طالب للهداية عنك.

والتفسير الآخر: هو الفقير في المال والمتاع، والأمر يكون عندئذ ببذل الجهد في هذا المجال، وبعدم ردّ هذا الفقير السائل يأساً.

والثالث: أنّ المعنى يشمل الفقير علمياً والفقير مادياً، والأمر بتلبية احتياجات السائل في المجالين. وهذا المعنى يتناسب مع الهداية الإلهيّة لنبيّه ﷺ، ومع إغنائه بعد عيولته.

﴿وَأَمَّا نِعْمَةَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

والحديث عن النعمة قد يكون باللسان، وبتعابير تتمّ عن غاية الشكر والامتنان، لا عن التفاخر والغرور. وقد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة في سبيل الله، إنفاقاً يبيّن مدى هذه النعمة هذه هي خصلة الإنسان السخيّ الكريم... يشكر الله على النعمة، ويقرن الشكر بالعمل، خلافاً للسخفاء البخلاء الذين لا يكفون عن الشكوى والتأوّه، ولا يكشفون عن نعمه ولو حصلوا على الدنيا وما فيها، وجوههم يعلوها سيماء الفقر، وكلامهم مفعم بالتذمّر والحسرة، وعملهم يكشف عن فقر!

(1) علي بن بابويه، فقه الرضا، ص 172، تحقيق مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، نشر المؤتمر العالمي للإمام

الرضا ﷺ، ط 1، 1406هـ.

بينما روي عن رسول الله ﷺ «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»⁽¹⁾.

من هنا يكون معنى الآية: بين ما أغدق الله عليك من نعمة بالقول والعمل، شكراً على ما أغناك الله إذ كنت عاتلاً.

بعض المفسرين ذهب إلى أن النعمة في الآية هي النعمة المعنوية ومنها النبوة والقرآن، والأمر للنبي بالإبلاغ والتبيين، وهذا هو المقصود من الحديث بالنعمة.

ويحتمل أيضاً أن يكون المعنى شاملاً للنعم المادية والمعنوية، لذلك ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله: «حَدَّثَ بِمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ، وَفَضْلِكَ، وَرِزْقِكَ، وَأَحْسَنَ إِلَيْكَ وَهَدَاكَ»⁽²⁾.

وعن رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ خَيْرًا فَلَمْ يُرْ عَلَيْهِ، سُمِّيَ بِغِيضِ اللَّهِ، مُعَادِيًا لِنِعْمِ اللَّهِ»⁽³⁾.

وعن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ النِّعْمَةِ عَلَى عَبْدِهِ»⁽⁴⁾.

(1) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 5، ص 35.

(2) الطبرسي، مجمع البيان، ج 10، ص 507.

(3) تفسير القرطبي، ج 10، ص 7192، وقريب من هذا المعنى في الكافي، ج 6، كتاب الزي والتجميل، ح 2.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج 6، ص 438.

المفاهيم الرئيسية

- يتبيّن من الآيات الكريمة في هذه السّورة أنّ النّبىّ ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً إلاّ من عند الله، وكما تجسّد للنّبىّ ﷺ ثلاث هبات من الهبات الخاصّة التي أنعم الله بها عليه:
- الرعاية عند اليتيم، والهدى بالوحي، والغنى بعد الفقر.
- تتضمّن هذه السورة المباركة إشارة مضمونيّة إلى مسألة أهمّ من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهي اللطف بهم والعطف عليهم وإزالة إحساسهم بالنقص العاطفيّ.
- الإنسان السخيّ الكريم... يشكر الله على النعمة، ويقرن الشكر بالعمل، ويحدّث بها حديث الشكر لا حديث الغرور.

الدرس السادس عشر

تفسير سورة البيّنة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يعرف المقصود من قوله تعالى: دين القيمة، في السورة.
- 2 . يشرح تفسير آيات السورة إجمالاً.
- 3 . يفهم موقف أهل الكتاب عندما اتّتهم البيّنة.

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ (١) رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ مِنْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عِدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)

في رحاب السورة

المشهور أنّ هذه السورة نزلت في المدينة، ومحتواها يؤيد ذلك، إذ تحدّثت في مواضع متعدّدة عن أهل الكتاب. وغالباً ما واجه المسلمون أهل الكتاب في المدينة. أضف إلى ذلك أنّ السورة تحدّثت عن الصلاة والزكاة، والزكاة - مع أنّها شرّعت في مكة - اتّخذت طابعها الرسمي الواسع في المدينة.

هذه السورة تناولت رسالة رسول الله ﷺ وما فيها من دلائل بيّنة. هذه الرسالة التي كان أهل الكتاب ينتظرونها، لكن حين ظهرت، أعرض عنها فريق منهم لما وجدوا فيها من خطر على مصالحهم الشخصية.

والسورة تقرّر حقيقة وجود الإيمان بالله والتوحيد والصلاة والصيام في كلّ الأديان ودعوات الأنبياء ﷺ باعتبارها أصولاً ثابتة خالدة.

وفي مقطع آخر من السورة بيان عن مواقف أهل الكتاب والمشركين تجاه الإسلام... بعضهم آمن وعمل صالحاً فهو خير المخلوقات، وبعضهم كفر وأشرك فهو شر البرية.

ذلك دين القيمة

في بداية السورة ذكر لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) ومشركي العرب قبل ظهور الإسلام، فهؤلاء كانوا يدعون أنهم غير منفيين عن دينهم إلا بدليل واضح قاطع.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ .

و«البينة» التي أرادوها: رسول من الله يتلو عليهم كتاباً مطهراً من رب العالمين:

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ .

وهذه الصحف فيها من الكتابة ما هو صحيح وثابت وذو قيمة.

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾

كان هذا ادعاهم قبل ظهور الإسلام، وحينما ظهر ونزلت آياته تغير هؤلاء، واختلفوا وتفرقوا! وما تفرقوا إلا بعد أن جاءهم الدليل الواضح والنبي الصادق بالحق.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾

فالآيات الأولى لهذه السورة المباركة تتحدث عن أهل الكتاب والمشركين الذين كانوا يدعون أنهم سوف يقبلون الدعوة إن جاءهم نبي بالدلائل الساطعة.

لكنهم أعرضوا حين ظهر، وجابهوه، إلا فريق منهم آمن واهتدى.

وهذا المعنى يشبه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (1).

نعلم أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون مثل هذا الظهور، ولا بد أن يكون مشركو العرب مشاركين لأهل الكتاب في هذا الانتظار لما كانوا يرون فيهم من علم ومعرفة، ولكن حين تحققت آمالهم غيروا مسيرهم والتحقوا بأعداء الدعوة.

ثمّة تفسير آخر للآية هو أن الله لا يترك أهل الكتاب والمشركين لحالهم حتى يتمّ الحجّة

(1) سورة البقرة، الآية 89.

عليهم ويُرسَل إليهم البيّنة ويبيّن لهم الطريق. ولذلك أرسل إليهم نبيّ الإسلام لهدايتهم. بناءً على هذا التفسير، هذه الآية تُشير إلى قاعدة اللطف التي يتناولها علم الكلام وتُقرّر أن يبعث الله إلى كل قوم دلائل واضحة ليتمّ الحجّة عليهم. على أيّ حال، «البيّنة» في الآية هي الدليل الواضح، ومصداقها حسب الآية الثانية شخص «رسول الله» وهو يتلو عليهم القرآن.

«صحف» جمع «صحيفة»، وتعني ما يكتب عليه من الورق، والمقصود بها هنا محتوى هذه الأوراق، إذ نعلم أنّ الرسول الأعظم ﷺ لم يكن يتلو شيئاً عليهم من الأوراق. و«مطهرة» أي طاهرة من كل ألوان الشرك والكذب والباطل، ومن تلاعب شياطين الجن والإنس، كما جاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (1). جملة (فيها كتب قيّمة) إشارة إلى أنّ ما في هذه الصحف السماوية خال من الانحراف والاعوجاج. من هنا فإنّ هذه «الكتب» تعني المكتوبات، أو تعني الأحكام والتشريعات المنصوصة من الله، لأنّ الكتابة جاءت بمعنى تعيين الحكم أيضاً، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (2).

وبهذا يكون معنى «قيّمة» سوية ومستقيمة، أو ثابتة ومستحكمة، أو ذات قيمة، أو كلّ هذه المعاني مجتمعة. ويُحتمل أيضاً أن يكون المعنى هو أنّ القرآن فيه الكتب السماوية القيّمة السابقة لأنّه يضمّ جميع محتوياتها وزيادة.

ويلفت النظر تقدّم ذكر أهل الكتاب على المشركين في الآية الأولى، والاختصار على ذكر أهل الكتاب في الآية الرابعة دون ذكر المشركين، بينما الآية تُريد الاثنين. وهذا يعود ظاهراً إلى أنّ أهل الكتاب كانوا هم الرواد في هذه المواقف، وكان المشركون تابعين لهم، أو لأنّ أهل الكتاب كانوا أهلاً للذمّ أكثر لما عندهم من علماء كثيرين، وبذلك كانوا ذوي مستوى أرفع من المشركين. فمعارضتهم - إذاً - أفضع وأبشع وتستحقّ مزيداً من التقريع.

(1) سورة فصلت، الآية 42.

(2) سورة البقرة، الآية 183.

ثم يتوالى التقريع لأهل الكتاب، ومن بعدهم للمشركين، لأنهم اختلفوا في الدين الجديد، منهم مؤمن ومنهم كافر، بينما: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾.

ثم تضيف الآية القول: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾.

المقصود هو أن دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص والصلاة والزكاة وأمثالها من التعاليم. وهذه أمورٌ معروفة فلماذا يُعرضون عنها؟.

وقوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ أي بمجموع الدين والشريعة، أي أنهم أمروا أن يعبدوا الله وأن يُخلصوا له الدين والتشريع في جميع المجالات، فجملة ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ تؤيد هذا المعنى لأنها طرحت الدين بمفهومه الواسع.

«حنفاء» جمع «حنيف»، من الفعل الثلاثي حَنَفَ، أي عدل عن الضلال إلى الطريق المستقيم. جملة ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ إشارة إلى أن الأصول المذكورة في الآية وهي: التوحيد الخالص، والصلاة «الارتباط بالله» والزكاة «الارتباط بالناس» من الأصول الثابتة الخالدة في جميع الأديان، بل إنها قائمة في أعماق فطرة الإنسان. ذلك لأن مصير الإنسان يرتبط بالتوحيد، وفطرته تدعوه إلى معرفة المنعم وشكره، ثم إن الروح الإجتماعية المدنية للإنسان تدعوه إلى مساعدة المحرومين.

من هنا، هذه التعاليم لها جذور في أعماق الفطرة، وهي لذلك كانت في تعاليم كل الأنبياء السابقين وتعاليم خاتم النبيين ﷺ.

خير البرية وشرها

الآيات السابقة تحدّثت عن انتظار أهل الكتاب والمشركين لبيّنة تأتيهم من الله، لكنهم تفرّقوا من بعد ما جاءتهم البيّنة.

هذه الآيات تذكر مجموعتين من الناس مختلفتين في موقفهما من الدعوة «كافرة» و«مؤمنة» تذكر الكافرين أولاً بالقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾

وإنما قال «كفروا» لكفرهم بالدين المبين، وإلا فإن كفرهم ليس بجديد.

وعبارة ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ عبارة قارعة مثيرة، تعني أنه لا يوجد بين الأحياء وغير الأحياء موجود أضلّ وأسوأ من الذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحق وإتمام الحجّة، وساروا في طريق الضلال، مثل هذا المعنى ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾⁽¹⁾، وفي قوله سبحانه يصف أهل النار: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾⁽²⁾.

وهذه الآية التي نحن بصدها تذهب في وصف هؤلاء المعاندين إلى أبعد ممّا يذهب إليه غيرها، لأنها تصفهم بأنهم شرّ المخلوقات، وهذا بمثابة بيان الدليل على خلودهم في نار جهنّم.

ولم لا يكونون شرّ المخلوقات وقد فتحت أمامهم جميع أبواب السعادة فأعرضوا عنها كبراً وغروراً وعناداً؟

الآية التالية تذكر المجموعة الثانية، وهم المؤمنون وتقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

ثم ذكرت السورة جزاء هؤلاء المؤمنين، وما لهم عند الله من مثوبة:

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ﴾.

يلاحظ أن الحديث عن المؤمنين مقرون بذكر الأعمال الصالحة، باعتبارها ثمرة دوحة الإيمان. وفي ذلك إشارة إلى أن ادعاء الإيمان وحده لا يكفي، بل لا بد أن تشهد عليه الأعمال الصالحة. لكن الكفر وحده - وإن لم يقترن بالأعمال السيئة - مبعث السقوط والشقاء. أضف إلى ذلك أن الكفر عادة منطلق لأنواع الذنوب والجرائم والانحرافات.

عبارة ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ تبيّن بجلاء أن الإنسان المؤمن ذا الأعمال الصالحة أفضل من الملائكة، فعبارة الآية مطلقة وليس فيها استثناء. والآيات الأخرى تشهد على ذلك أيضاً، مثل آية سجود الملائكة لآدم، ومثل قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾⁽³⁾.

(1) سورة الأنفال، الآية 22.

(2) سورة الأعراف، الآية 179.

(3) سورة الإسراء، الآية 70.

هذه الآية تحدّثت عن الجزاء المادّي الذي ينتظر المؤمنين، وعن الجزاء المعنويّ الروحيّ لهم، وهو رضا الله عنهم ورضاهم عنه. إنهم راضون عن الله لأنّ الله أعطاهم ما أرادوه، والله راض عنهم لأنهم أدّوا ما أرادهم، وإن كانت هناك زلّة فقد غفرها بلطفه وكرمه. وأيّة لذة أعظم من أن يشعر الإنسان بأنّه نال رضا المحبوب ووصاله ولقاءه؟ نعم، نعيم جسد الإنسان جنّات الخلد، ونعيم روحه رضی الله ولقاؤه. جملة **﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾** تدلّ على أنّ كلّ هذه البركات تنطلق من «خشية الله»، لأنّ هذه الخشية دافع للحركة صوب كلّ طاعة وتقوى وعمل صالح.

عليّ عليه السلام وشيعته خير البرية

ثمّة روايات كثيرة من طرق أهل السنّة في مصادرهم الحديثيّة المعروفة، وهكذا في المصادر الشيعيّة، فسّرت الآية: **﴿أُولَئِكَ هُمُ حَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾** بأنهم عليّ وشيعته. ف«الحاكم الحسكانيّ النيسابوريّ» عالم أهل السنّة المعروف في القرن الخامس الهجريّ نقل هذه الروايات في كتابه المشهور «شواهد التنزيل» بطرق مختلفة، ويزيد عدد هذه الروايات على العشرين نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

1. عن ابن عباس قال: عندما نزلت آية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمُ حَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾** قال رسول الله ﷺ عليّ: «هو أنت وشيعتك تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي عدوك غضباناً مقمحين»⁽¹⁾.

2. وعن جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال: كنّا جالسين عند النبيّ جوار الكعبة، فأقدم علينا عليّ، وحين رآه النبيّ ﷺ قال: «قد أتاكم أخي»، ثمّ التفت إلى الكعبة، وقال: «ربّ هذه البيّنة، إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة». ثمّ التفت إلينا وقال: «أما والله إنّه أولكم إيماناً بالله، وأقومكم بأمر الله، وأوفاكم بعهد الله، وأقضاكم بحكم الله، وأقسّمكم بالسويّة، وأعد لكم في الرعيّة وأعظمكم عند الله مزيّة».

(1) الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل، ج 2، ص 357، ح 1126.

قال جابر: فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ فكان عليّ إذا أقبل قال أصحاب محمّد: قد أتاكم خير البرية بعد رسول الله⁽¹⁾.
بعض هذه الأحاديث رواه ابن حجر في الصواعق، ومحمّد الشبلنجي في نور الأبصار.
وجلال الدين السيوطي نقل القسم الأعظم من الرواية الأخيرة عن ابن عساكر عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

3. في «الدر المنثور» عن ابن عباس قال: «حين نزلت آية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، قال رسول الله لعلّي: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين».

باختصار هذا الحديث من الأحاديث المعروفة المشهورة المقبولة لدى أكثر علماء الإسلام، وفيه بيان لفضيلة كبرى من فضائل عليّ وأتباعه.
وهذه الروايات تدلّ ضمناً على أنّ كلمة «الشيعة» باعتبارها اسماً لأتباع عليّ عليه السلام كانت قد شاعت منذ عهد رسول الله ﷺ بين المسلمين على لسان الرسول نفسه. وأولئك الذين يخالون أنّ الكلمة هذه ظهرت في عصور متأخرة في خطأ كبير.

منحنى الصعود والسقوط

من آيات هذه السورة المباركة يُستفاد أنّ الإنسان فريد بين مخلوقات الكون في البون الشاسع الذي يفصل بين منحنى ارتفاعه وسموه وبين منحنى سقوطه وهبوطه. فإذا كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات (عبارة «عملوا الصالحات» تشمل كلّ الأعمال الصالحة لا بعضها) فهو أفضل خلق الله؛ وإن سلك طريق الكفر والضلالة والعناد هبط إلى هوة سحيقة وكان شرّ خلق الله.

هذا البون الشاسع بين الاتجاهين - رغم خطورته وحساسيته - له دلالة كبيرة على مكانة النوع البشري وقابليته للتكامل. وطبيعي أن يكون إلى جانب هذه القابلية العظيمة إمكان عظيم للهبوط والسقوط.

(1) م. س، ص 359، ح 1130.

المفاهيم الرئيسية

- هذه السّورة تناولت رسالة رسول الله ﷺ وما فيها من دلائل بيّنة. والسّورة تُقرّر حقيقة وجود الإيمان والتوحيد والصلاة والصيام في كلّ الأديان ودعوات الأنبياء باعتبارها أصولاً ثابتة.
- الآيات الأولى لهذه السّورة المباركة تتحدّث عن أهل الكتاب والمشركين الذين كانوا يدعون أنهم سوف يقبلون الدعوة إن جاءهم نبيٌّ بالدلائل الساطعة. لكنهم أعرضوا حين ظهر، وجابهوه، إلا فريقٌ منهم آمن واهتدى.
- إن دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص والصلاة والزكاة وأمثالها من التعاليم. وذكر المؤمنين مقرون بذكر الأعمال الصالحة، باعتبارها ثمرة دوحه الإيمان.
- نعيم جسد الإنسان جنّات الخلد، ونعيم روحه رضا الله ولقاؤه. وخير البرية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وشيعته.

الدرس السابع عشر

تفسير سورة الجمعة

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يعرف المحاور الأساس لسورة الجمعة.
- 2 . يفهم هدف البعثة النبوية على ضوء سورة الجمعة.
- 3 . يشرح أهمية صلاة الجمعة من الناحية العبادية والسياسية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلَالِ مِيلِينَ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْتُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجْرَةِ وَاللَّهُ

خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

في رحاب السورة

تدور هذه السورة المباركة حول محورين أساسيين:

المحور الأول: هو التوحيد وصفات الله والهدف من بعثة الرسول ومسألة المعاد.

والمحور الثاني: هو الأثر التربوي لصلاة الجمعة وبعض الخصوصيات المتعلقة بهذه

العبادة العظيمة.

ولكن يُمكن أن نُجمل الأبحاث التي وردت في هذه السورة المباركة بالنقاط التالية:

1. تسبيح كافة المخلوقات.
2. الهدف التعليمي والتربوي من بعثة الرسول ﷺ .
3. تحذير المؤمنين وتبئهم من مغبة الوقوع في الانحراف الذي وقع فيه اليهود فابتعدوا عن جادة الصواب والحق.
4. إشارة إلى قانون الموت العام والشامل الذي يُمثل المعبر إلى عالم البقاء والخلود.
5. التأكيد على أداء فريضة صلاة الجمعة، وحث المؤمنين على تعطيل العمل والكسب من أجل المشاركة فيها.

الهدف من بعثة الرسول

تبدأ هذه السورة بالتسبيح لله عز وجل، وتُشير إلى بعض صفات الجمال والجلال والأسماء الحسنى لله. ويُعتبر ذلك في الحقيقة مقدمة للأبحاث القادمة، حيث يقول تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، حيث يُسبِّحونه ويُزَّهونه عن جميع العيوب والنقائص، الملك القدوس العزيز الحكيم.

وبناءً على ذلك تُشير الآية أولاً إلى «المالكية والحاكمية المطلقة» لله سبحانه، ثم «تُزَّهه من أي نوع من الظلم والنقص» وذلك لارتباط اسم الملوك بأنواع المظالم والمآسي، فجاءت كلمة «قدوس» لتتفي كل ذلك عنه جل شأنه.

وبعد هذه الإشارة الخاطفة ذات المعنى العظيم لمسألة التوحيد وصفات الله، يتحدث القرآن عن بعثة الرسول والهدف من هذه الرسالة العظيمة المرتبطة بالعزيز الحكيم القدوس، حيث يقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

وذلك من أجل أن يطهرهم من كل أشكال الشرك والكفر والانحراف والفساد ويُزكِّيهم ويُعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

«الأميين» جمع (أمي) وهو الذي لا يعرف القراءة والكتابة (نسبته إلى الأم باعتبار أنه لم يتلق تعليماً في معهد أو مدرسة فهو بقي على ما ولدته أمه).

والجدير بالذكر أن الآية تؤكد أن نبي الإسلام بُعث من بين هؤلاء الأميين الذين لم

يتلقّوا ثقافة وتعليماً وذلك لبيان عظمة الرسالة وذكر الدليل على حقّانيتها، لأنّ من المحال أن يكون هذا القرآن العظيم وبذلك المحتوى العميق وليد فكر بشريّ وفي ذلك المحيط الجاهليّ ومن شخص أمّي أيضاً، بل هو نور أشرق في الظلمات، ودوحة خضراء في قلب الصحراء، وهي بحدّ ذاتها معجزة باهرة وسند قاطع على حقّانيتها...

ولخصّت الآية الهدف من بعثة الرسول ﷺ في ثلاثة أمور، جاء أحدها كمقدمة وهو تلاوة الآيات عليهم، بينما شكّل الأمران الآخران أي (تهذيب وتركية النفس) و (تعليمهم الكتاب والحكمة) الهدف النهائي الكبير.

ولكن لم يكن الرسول مبعوثاً لهذا المجتمع الأمّي فقط، بل كانت دعوته عامّة لجميع الناس، فقد جاء في الآية التالية **﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾** (1).

وجاء في آخر الآية: **﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**.

بعد أن يُشير إلى هذه النعمة الكبيرة - أي نعمة بعث نبيّ الإسلام الأكرم وبرنامج التعليم والتربويّ - يُضيف قائلاً: **﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾**.

الحمّار الذي يحمل الأسفار

جاء في بعض الروايات أنّ اليهود قالوا: (إذا كان محمّد قد بعث برسالة فإنّ رسالته لا تشملنا) فردّت عليهم الآية مورد البحث في أوّل بيان لها بأنّ رسالته قد أُشير إليها في كتابكم السماويّ لو أنكم قرأتموه وعملتم به.

يقول تعالى: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوَابَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا﴾**، أي نزلت عليهم التوراة وكلّفوا بالعمل بها ولكنهم لم يؤدّوا حقّها ولم يعملوا بآياتها فمثلهم **﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾**.

لا يشعر هذا الحيوان بما يحمل من كتب إلا بثقلها، ولا يُميّز بين أن يكون المحمول على ظهره خشباً أو حجراً أو كتباً فيها أدقّ أسرار الخلق وأحسن منهج في الحياة.

لقد اقتنع هؤلاء القوم بتلاوة التوراة واكتفوا بذلك دون أن يعملوا بموجبها.

هؤلاء مثلهم كمثل الحمّار الذي يُضرب به المثل في الغباء والحمّاقية.

وذلك أوضح مثال يُمكن أن يكشف عن قيمة العلم وأهمّيته.

(1) سورة الجمعة، الآية 3.

ويُعتبر ذلك تحذيراً للمسلمين كافة من أن ينتهوا إلى ما انتهى إليه اليهود، فقد شملتهم الرحمة الإلهية ونزل عليهم القرآن الكريم، لا لكي يضعوه على الرفوف يعلوه الغبار، أو يحملوه كما تحمل التعاويذ أو ما إلى ذلك. وقد لا يتعدى اهتمام بعض المسلمين بالقرآن أكثر من تلاوته بصوت جميل في أغلب الأحيان.

توصيف حال اليهود

ثم يقول تعالى: **بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، إذ لم يكتفوا بمخالفة القرآن عملاً، بل أنكروه بلسانهم أيضاً، حيث قالت الآية (87) من سورة البقرة وهي تصف اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ أَسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْنَلُونَ﴾⁽¹⁾.**

ويقول تعالى في آخر الآية في عبارة وجيزة: **﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**. صحيح أن الهداية شأن إلهي، ولكن ينبغي أن تهيأ لها الأرضية اللازمة، وهي الروح التواقفة لطلب الحق والبحث عنه، وهي أمور يجب أن يهيئها الإنسان نفسه، ولا شك أن الظالمين يفتقدون مثل هذه الأرضية.

ومن المعروف أن اليهود اعتبروا أنفسهم أمة مختارة، أو نسيجاً خاصاً لا يشبه غيره، وذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما ادّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وهذا ما أشارت إليه الآية (18) من سورة المائدة: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ﴾**⁽²⁾ (رغم أنهم يقصدون الأبناء المجازيين).

ولكن القرآن شجب هذا التعالي مرة أخرى بقوله: **﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**.

فالأحباء يتمنون اللقاء دائماً، ولا يتم اللقاء المعنوي بالله يوم القيامة إلا عندما تزول حجب عالم الدنيا وينتشف غبار الشهوات والهوى، وحينئذ سيرى الإنسان جمال المحبوب ويجلس على بساط قربه، ويكون مصداقاً لقوله تعالى: **﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾**⁽³⁾ فيدخل إلى حرم الحبيب.

(1) سورة البقرة، الآية 87.

(2) سورة المائدة، الآية 18.

(3) سورة القمر، الآية 55.

إنَّ خوفكم وفراكم من الموت دليل قاطع على أنَّكم متعلِّقون بهذه الدنيا وغير صادقين في ادِّعائكم.

ويوضِّح القرآن الكريم هذا المعنى بتعبير آخر في سورة البقرة آية (96) عندما يقول تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا أَهْتَمَّ لَكُمْ وَأَنَّ الْيَوْمَ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أَجْرٌ أَكْبَرُ ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَهْتَمَّ لَكُمْ وَأَنَّ الْيَوْمَ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أَجْرٌ أَكْبَرُ ۖ﴾ (1). ثمَّ يُشير القرآن إلى سبب خوفهم من الموت بقوله: ﴿وَلَا يَمُنُّونَ بِهِ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۗ﴾.

لأنَّ خوف الإنسان من الموت ناشئ من عاملين أساسيين: الأول: عدم إيمان الإنسان بالحياة بعد الموت واعتقاده أنَّ الموت زوال وفتاء. والثاني: أعماله السيئة التي يعتقد أنَّه سيواجهها بعد مماته في عالم الآخرة عندما تُقام المحكمة الإلهية.

وقد وصفهم القرآن الكريم بالظالمين، وذلك لأنَّ الظلم يتَّسع ليشمل جميع الأعمال السيئة والجرائم التي ارتكبوها، من قتلهم الأنبياء وقول الزور وغصب الحقوق وتلوّثهم بمختلف المفاصد الأخلاقية.

غير أنَّ هذا الخوف وذلك الفرار لا يُجدي شيئاً، فالموت أمرٌ حتميٌّ لا بدَّ أن يُدرك الجميع، إذ يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۗ﴾.

الموت قانون عامٌّ يخضع له الجميع بما فيهم الأنبياء والملائكة وجميع الناس، كلٌّ من عليها فان ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام.

وكذلك المثل أمام محكمة العدل الإلهي لا يفلت منها أحد، إضافة إلى علم الله تعالى بأعمال عباده بدقّة وبتفصيل كامل.

وبهذا سوف لا يكون هناك طريق للتخلُّص من هذا الخوف سوى تقوى الله وتطهير النفس والقلب من المعاصي. وبعد أن يُخلص الإنسان لله تعالى فإنَّه لن يخاف الموت حينئذ.

(1) سورة البقرة، الآية 96.

ويعبر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه المرحلة بقوله: «هيهات بعد اللتيا واللتى، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه»⁽¹⁾.

فإذا صدقت النفس أن (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) وإذا أيقنت هذه النفس أن هذا البدن الترابي إنما هو سجن للروح وسور يضرب الحصار عليها، إذا آمنت بذلك حقاً وكانت نظرة الإنسان إلى الموت هكذا فإنه سوف لن يخشى الموت أبداً.

لهذا نجد في قصة عاشوراء أنه كلما ضاقت حلقة الأعداء وازداد ضغطهم على الإمام الحسين وأصحابه ازدادت وجوههم إشراقاً، حتى أن الشيوخ من أصحابه كانت الابتسامة تطفو على وجوههم في صبيحة عاشوراء، وحينما كانوا يسألون كانوا يقولون: إننا سنستشهد بعد ساعات فتعاقب الحور العين⁽²⁾.

والسبب الآخر الذي يجعل الإنسان يخاف من الموت هو التعلق بالدنيا أكثر من اللازم، الأمر الذي يجعله يرى الموت الشيء الذي سيفصله عن محبوبه ومعشوقه الذي هو الدنيا. وكثرة السيئات وقلة الحسنات في صحيفة الأعمال هي السبب الثالث وراء الخوف من الموت، فقد جاء شخص وسأل (أبا ذر): ما لنا نكره الموت؟ فأجاب أبو ذر قائلاً: «لأنكم عمّرتم الدنيا وخرّبتم الآخرة، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب»⁽³⁾.

أهميّة صلاة الجمعة

إن أفضل دليل على أهميّة هذه الفريضة العظيمة هو الآيات الأخيرة في هذه السورة المباركة، التي أمرت جميع المسلمين وأهل الإيمان بمجرد سماعهم لأذان الجمعة أن يسرعوا إليها ويتركوا الكسب والعمل، وكل ما من شأنه أن يزاحم هذه الفريضة.

عن الرسول الأكرم ﷺ: «إن الله تعالى فرض عليكم الجمعة، فمن تركها في حياتي أو بعد موتي استخفافاً بها أو جحوداً لها، فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا حجّ له، ألا ولا صوم له، ألا ولا برّ له، حتى يتوب»⁽⁴⁾.

(1) نهج البلاغة، ج 1، ص 41.

(2) المقدم، مقتل الحسين، ص 263.

(3) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء، ج 8، ص 258.

(4) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 5، ص 7.

وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ: «من أتى الجمعة إيماناً واحتساباً استأنف العمل»⁽¹⁾. أي غُفرت ذنوبه وبيدأ العمل من جديد.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «صلاة الجمعة فريضة والاجتماع إليها فريضة مع الإمام، فإن ترك رجل من غير علة ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض ولا يدع ثلاث فرائض من غير علة إلا منافق»⁽²⁾.

والروايات كثيرة في هذا المجال ولا يتسع المجال لذكرها جميعاً، لذا نحاول أن ننهي هذا البحث بحديث آخر، حيث جاء رجل إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله، إنني تهيأت عدة مرّات للحجّ ولكّني لم أوفّق. قال ﷺ: «عليك بالجمعة فإنها حجّ المساكين»⁽³⁾. وفي ذلك إشارة إلى أن ما يتضمّنه هذا المؤتمر الإسلاميّ الكبير (أي الحجّ) من بركات، موجودة في اجتماع صلاة الجمعة.

ومن الملفت للنظر أنه قد ورد ذمّ شديد لتارك صلاة الجمعة، حتّى عدّ التاركون للجمعة في صفّ المنافقين عندما تكون صلاة الجمعة واجباً عينياً (أي في زمن حضور الإمام المعصوم عليه السلام) وأما في زمن الغيبة - وبناءً على أنها واجبة تخييراً بينها وبين صلاة الظهر - فإنه لا يكون مشمولاً بهذا الذمّ والتقريع (للتوسّع في ذلك يجب الرجوع إلى الكتب الفقهية).

فلسفة صلاة الجمعة العبادية والسياسية

إن صلاة الجمعة - قبل كلّ شيء - عبادة جماعية ولها أثر العبادات عموماً، حيث تطهّر الروح والقلب من الذنوب، وتزيل صدأ المعاصي عن القلوب، خاصّةً وأنّها تكون دائماً مسبوقة بخطبتين تشتملان على أنواع المواعظ والحكم، والحثّ على التقوى وخوف الله.

أمّا من الناحية السياسية والاجتماعية فهي أكبر مؤتمر أسبوعيّ عظيم بعد مؤتمر الحجّ السنويّ، لهذا نجد الرسول ﷺ يقول تلك الرواية التي نقلناها سابقاً حول أن الجمعة حجّ من لا يملك القدرة على المشاركة في الحجّ.

(1) وسائل الشيعة، ج 5، ص 3.

(2) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، ص 233.

(3) م. ن، ج 7، ص 300.

ويُعطي الإسلام في الحقيقة أهمية خاصة لثلاثة مؤتمرات كبيرة:
التجمّعات التي تتمّ يومياً لصلاة الجماعة.
التجمّع الأسبوعيّ الأوسع في صلاة الجمعة.
ومؤتمر الحجّ الذي يُعقد في كلّ سنة مرّة.

دور صلاة الجمعة

دور صلاة الجمعة مهمٌ جداً خاصّة وأنّ الخطيب سيتحدّث في الخطبتين عن المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبذلك سيكون هذا التجمّع العظيم والمهيب منشأً للبركات والنعم التالية:

- أ - توعية الناس على المعارف الإسلامية والأحداث السياسية والاجتماعية المهمة.
 - ب - توثيق الاتحاد والانسجام بين المسلمين أكثر لإخافة الأعداء.
 - ج - تجديد الروح الدينية ورفع معنويات المسلمين.
 - د - إيجاد التعاون لحلّ المشكلات العامة التي تواجه المسلمين.
- ولهذا فإنّ أعداء الإسلام يخافون دائماً من صلاة الجمعة الجامعة للشرائط.
ولهذا - أيضاً - كانت صلاة الجمعة مصدر قوة سياسية في أيدي حكومات العدل كحكومة الرسول ﷺ الذي استثمرها أحسن استثمار لخدمة الإسلام، وكذلك كانت مصدر قوة أيضاً لحكومات الجور كدولة بني أمية الذين استغلّوها لتحكيم قدرتهم وسيطرتهم وإضلال الناس.

وعلى مدى التاريخ نلاحظ أنّ آية محاولة للتمرد على النظام تبدأ أولاً بالامتناع عن صلاة الجمعة خلف الإمام المنصوب من قبل الحاكم، فقد جاء في قصة عاشوراء أنّ بعض الشيعة اجتمعوا في دار سليمان بن صرد الخزاعيّ ثمّ بعثوا رسالة إلى الإمام الحسين عليه السلام من الكوفة جاء فيها «.. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنّك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتّى نلحقه بالشام إن شاء الله»⁽¹⁾.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 44، ص 333.

وفي الصحيفة السجادية عن الإمام السجاد عليه السلام: «اللهم إن هذا المقام لخلفائك وأصفيائك ومواضع أمنائك، في الدرجة الرفيعة التي اختصتهم بها قد ابتزوها»⁽¹⁾. وفي خطبة الجمعة يتم تبديد جميع الإشاعات التي كان الأعداء قد بثوها خلال الأسبوع، وتذبّ بعد ذلك الحياة في جموع المسلمين ويبدأ دم جديد بالتدفق.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ فقه أهل البيت عليهم السلام ينصّ على عدم جواز إقامة أكثر من جمعة واحدة في منطقة نصف قطرها فرسخ، كما يجب أن يشارك في صلاة الجمعة من كان يبعد عنها بمسافة فرسخين (أي ما يعادل أحد عشر كيلو متراً). كلّ هذا يعني أنّه لا يمكن إقامة أكثر من صلاة جمعة في مدينة واحدة صغيرة أو كبيرة، مع أطرافها وضواحيها. وبناءً على هذا فسيكون هذا التجمع هو أوسع تجمع يُقام في تلك المنطقة.

ولكننا نجد مع الأسف أنّ هذه المراسم العبادية السياسية التي تستطيع أن تكون مصدر حركة عظيمة في المجتمعات الإسلامية، نجدها بسبب سيطرة الحكومات الفاسدة على بعض الدول الإسلامية قد فقدت روحها ومعناها، إلى الحدّ الذي لا تترك فيه أيّ أثر إيجابي، وأصبحت تُقام باعتبارها مراسم حكومية رسمية لا أكثر، وذلك ممّا يحزّ بالنفوس ويؤلم كثيراً.

(1) الصحيفة السجادية، الدعاء 42.

المفاهيم الرئيسية

تدور هذه السورة حول محورين أساسيين:

الأول: هو التوحيد وصفات الله والهدف من بعثة الرسول ومسألة المعاد.
والمحور الثاني: هو الأثر التربوي لصلاة الجمعة وبعض الخصوصيات المتعلقة بهذه العبادة العظيمة.

- صحيح أنّ الهداية شأن إلهي، ولكن ينبغي أن تُهيأ لها الأرضية اللازمة، وهي الروح التوّاقة لطلب الحقّ والبحث عنه.
- الموت قانون عامّ يخضع له الجميع بما فيهم الأنبياء والملائكة وجميع الناس.
- إنّ السبب الأساس وراء الخوف من الموت هو عدم إيمان هؤلاء بالحياة بعد الموت أو التعلّق بالدنيا أكثر من اللازم أو كثرة المعاصي.
- إنّ صلاة الجمعة - قبل كلّ شيء - عبادة جماعية ولها أثر العبادات عموماً، حيث تُطهر الروح والقلب من الذنوب. أمّا من الناحية السياسيّة والاجتماعيّة فهي أكبر مؤتمّر أسبوعيّ عظيم بعد مؤتمّر الحجّ السنويّ.

الدرس الثامن عشر

سورة الشمس

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يشرح قصة معاندة قوم ثمود.
- 2 . يعرف معاني المفردات الآتية: الضحى، طغواها، دمدم، عقروها.
- 3 . يفهم أثر التزكية والتدسية في تهذيب النفس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا لِلَّهِ ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَدَّلَهَا ⑤ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ⑩ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ⑭ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ⑮

شرح المفردات

- 1- الضحى: انتشار نور الشمس.
- 2- تلاها: اتبعها.
- 3- جلاها: أظهرها وأبرزها.
- 4- يغشاه: يغطيها أو يلبسها السواد.
- 5- طحها: بسطها ومهدها.
- 6- زكاها: طهرها.
- 7- دساها: أخفاها أو جعلها قليلة.
- 8- طغواها: طغيانها.
- 9- عقروها: أهلكوها.
- 10- دمدم: عذب وعاقب وأهلك.
- 11- عقباها: عاقبتها.

محتوى السورة وفضيلتها

نزلت هذه السورة في مكة، وهي في الواقع سورة تهذيب النفس، وتطهير القلوب من الأدران، ومعانيها تدور حول هذا الهدف. وفي مقدمتها قسمٌ بأحد عشر مظهراً من مظاهر الخليقة وبذات الباري سبحانه، من أجل التأكيد على أن فلاح الإنسان يتوقف على تزكية نفسه. والسورة فيها من القسم ما لم يجتمع في سورة أخرى.

وفي المقطع الأخير من السورة ذكر لقوم ثمود باعتبارهم نموذجاً من أقوام طفت وتمردت، وانحدرت بسبب ترك تزكية نفسها إلى هاوية الشقاء الأبدي، والعقاب الإلهي الشديد.

هذه السورة القصيرة في الواقع تكشف عن مسألة مصيرية هامة من مسائل البشرية، وتبين نظام الإسلام في تقييم أفراد البشر.

وفي فضيلة تلاوة هذه السورة يكفي أن نذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ، قال فيه: «من قرأها فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر»⁽¹⁾.

في كنف السورة

1. الظواهر الكونية والنفس الإنسانية:

إن اقتران النفس الإنسانية مع الظواهر الكونية كالشمس والقمر والأرض والسماء والليل والنهار، مع ما تتضمنه هذه الظواهر من عظمة يدل على عظمة النفس الإنسانية ومدى دورها في هذا الكون العظيم.

فموضوع النفس الإنسانية موضوع خطير وعظيم، كعظمة السماء والأرض والشمس والقمر... فهي (أي النفس الإنسانية) تستحق الاهتمام من الإنسان ومعرفة ما يصلحها وما يفسدها، كما أن هذه الظواهر تستحق التفكير.

من هنا تعمل هذه الأقسام على تحريك الفكر في الإنسان كي يمعن النظر في هذه الموضوعات الهامة من عالم الخليفة، وليتخذ منها سبيلاً إلى الله تعالى.

فالشمس مثلاً: ذات دور هام وبنّاء جداً في الموجودات الحية على ظهر البسيطة. فهي إضافة إلى كونها مصدراً للنور والحرارة. وهما عاملان أساسان في الحياة الأرضية. تعتبر مصدراً لغيرهما من المظاهر الحياتية؛ حركة الرياح، وهطول الأمطار، ونمو النباتات، وجريان الأنهار والشلالات، بل حتى نشوء مصادر الطاقة مثل النفط والفحم الحجري، كل واحد منها يرتبط بشكل أو بآخر بنور الشمس.

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، ج10، ص496.

ولو قُدِّرَ لهذا المصباح الحياتي أن ينطفئ يوماً لساد الظلام والموت في كل مكان. هذا جانب من التفكير في بعض ما أقسمت به هذه السورة المباركة وهو جزء بسيط جداً من هذا الكون الشاسع.

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾⁽¹⁾.

2. أهمية تهذيب النفس:

كلما ازداد عدد أقسام القرآن ازدادت أهمية الموضوع. وفي هذه السورة المباركة أكبر عدد من الأقسام، ثم جاء التركيز على أن النجاح والفلاح في تزكية النفس، وأن الخيبة والخسران في ترك التزكية. وهذه في الواقع أهم مسألة في حياة الإنسان. والقرآن إذ يطرح هذه الحقيقة إنما يؤكد على أن فلاح الإنسان لا يتوقف على جمع المال والمتاع الفاني ونيل المنصب والمقام، ولا على أعمال أشخاص آخرين كما هو معروف عند المسيحيين بشأن ارتباط فلاح الإنسان بتضحية المسيح، بل الفلاح يرتبط بتزكية النفس وتطهيرها وسموها في ظل الإيمان والعمل الصالح.

وشقاء الإنسان ليس أيضاً وليد قضاء وقدر إجباريين، ولا نتيجة مصير مرسوم، ولا بسبب فعل هذا أو ذاك، بل هو بسبب التلوث بالذنوب والانحراف عن مسير التقوى. وفي التاريخ نماذج عديدة تؤكد هذه الحقيقة.

ففي الأثر أن زوج العزيز - زليخا - قالت ليوسف لما أصبح حاكم مصر: إن الحرص والشهوة يُصيران الملوك عبيداً، وإن الصبر والتقوى يُصيران العبيد ملوكاً، فقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ بَتَقَ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾⁽²⁾.

وعنها أيضاً قالت لما رأت موكب يوسف ماراً من أمامها: الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً⁽³⁾.

(1) سورة آل عمران، الآية 191.

(2) سورة يوسف، الآية 90.

(3) نقلاً عن الأمل، ناصر مكارم الشيرازي، ج 20، ص 248.

3. عاقبة أمة لم تُهذب نفسها:

الفلاح والخيبة الناتجان عن تزكية النفس وعدمها، غير مقتصرين على الإنسان الفرد، بل هذه السنّة الإلهية تنطبق على الأمم. والآيات الأخيرة من هذه السورة المباركة تشير إلى هذه السنّة الإلهية، فتحدّث عن مصير قوم «ثمود» بعبارات قصيرة قاطعة ذات مدلول عميق.

فقوم ثمود من أقدم الأقسام التي سكنت منطقة جبلية بين الحجاز والشام. كانت لهم حياة رغدة مرفّهة، وأرض خصبة، وقصور فخمة، غير أنّهم لم يؤدّوا شكر هذه النعم، بل طغوا وكذبوا نبيّهم صالحاً عليه السلام، واستهزؤوا بآيات الله تعالى، فكان عاقبة أمرهم أن أبيدوا بصاعقة سماوية.

ثمّ تستعرض السورة المباركة مقطعاً بارزاً من طغيان القوم وتقول: إذ انبعث أشقاها، وأشقى ثمود هو الذي عقر الناقة التي ظهرت باعتبارها معجزة بين القوم، وكان قتلها إعلان حرب على النبيّ صالح ﷺ.

هذا ويلاحظ أنّ قاتل الناقة شخص واحد أشارت إليه الآية: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا﴾. بينما نُسب العقر إلى قوم ثمود جميعاً ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، وهذا يعني أنّ كلّ هؤلاء القوم كانوا مشاركين في الجريمة، وذلك لأنّ هذه الجريمة تمّت برضا القوم فهم شركاء في الجريمة بهذا الرضا.

وعن أمير المؤمنين عليّ ﷺ قال: «إنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعّمهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا، فقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾» (1) (2).

(1) سورة الشعراء، الآية 157.

(2) الشريف الرضي، خطب الإمام عليّ ﷺ، نهج البلاغة، ج2، ص181.

المفاهيم الرئيسة

- سورة الشمس هي سورة تهذيب النفس، وتطهير القلوب.
- موضوع النفس الإنسانيّة يساوي في أهميّته وخطورته، أهميّة وخطورة الظواهر الكونيّة التي أقسم الله تعالى بها في هذه السورة.
- كثرة القسم تدلّ على أهميّة موضوع التزكية، وقد خاب وخسر من تركها.
- إنّ العقاب والخسران سنّة إلهيّة ستُصيب كلّ غافل عن تزكية نفسه وهذا ما جرى مع قوم ثمود.

الدرس التاسع عشر

سورة الليل

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يعرف سبب نزول سورة الليل.
- 2 . يشرح على ضوء السورة كيفية الوصول إلى اليسرى.
- 3 . يُعدّد على ضوء السورة صفات من يتلى بالعسرى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْيَلِ إِذَا يَعِشِي ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّى ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑥ فَسَنِّيئِهِ لِلْيُسْرَى ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ⑨ فَسَنِّيئِهِ لِلْعُسْرَى ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ⑪ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ⑫ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ⑬ فَأَنْذَرْتُمْ كُنَّا نَارًا تَلْظَى ⑭ لَا يَصِلُهَا إِلَّا الْأَشْقَى ⑮ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑯ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ⑰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ⑱ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ⑲ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ⑳ لَسَوْفَ يَرْضَى ㉑

شرح المفردات

- | | |
|--------------------------|----------------------------------|
| 1- يغشى: يُغطي. | 6- العسرى: التعب والنصب والشقاء. |
| 2- تجلّى: ظهر. | 7- يغني: يقي ويحمي. |
| 3- شتّى: مختلف ومتنوع. | 8- تردّى: هلك وسقط في العذاب. |
| 4- اليسرى: العمل الصالح. | 9- تلظى: تشتعل وتتوهج. |
| 5- استغنى: طلب الغنى. | 10- يتزكى: يتطهر. |

سبب النزول

هذه السورة مكية، وقيل في سبب نزولها إن هذه السورة نزلت في رجل كان له شجر نخل كثير. ومن تلك الأشجار نخلة مائلة تطلّ بفرعها على بيت فقير ذي عيال. فكان الرجل يمنع عياله (الفقير) من أخذ ما يسقط من النخلة في الدار، وإذا أكل أحدهم شيئاً منها أدخل إصبعه في فيه وأخرجه. فشكا الفقير إلى النبي ﷺ .

فعرض النبي ﷺ على الرجل أن يعطيه مقابل ذلك نخلة في الجنة فرفض. إلا أن أحد

المؤمنين اشتراه منه بأربعين نخلة وقام بإعطاء تلك النخلة للنبي ﷺ الذي بادر إلى بيت الفقير ليعلمه بأن النخلة أصبحت ملكه، فأنزل الله هذه السورة⁽¹⁾.

محتوى السورة وفضيلتها

هذه السورة تحمل كل خصائص السور المكيّة من قصر في الآيات، وحرارة في طرح المحتوى، وتركز أساساً على القيامة وعلى ما في ذلك اليوم من ثواب وعقاب. بعد القسم بثلاث ظواهر في بداية السورة يأتي تقسيم الناس إلى منفقين متقين، وبخلاء منكرين. وتذكر عاقبة كل مجموعة: اليسر والسعادة والهناء للمجموعة الأولى، والعسر والضنك والشقاء للمجموعة الثانية. وفي مقطع آخر من السورة إشارة إلى أن الهداية على الله سبحانه، وأنه تعالى أنذرهم من نار جهنم. ثم تذكر السورة في نهايتها من يدخل هذه النار ومن ينجو منها، مع ذكر أوصاف الفريقين. في فضيلة تلاوة هذه السورة ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأها أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسر له اليسر»⁽²⁾.

في كنف السورة

في هذه السورة المباركة استفادات عديدة:

1. أنها كما السورة السابقة: «سورة الشمس» تحفز العقل والتفكير الإنساني على النظر والتأمل في الظواهر الكونية، ولا يمر عليها مروراً لا فائدة فيه. فإن من المعروف أن الشيء الذي تراه دائماً يفقد الاهتمام والاعتناء، فالشمس مثلاً الناس يمرّون عليها ولا يعرفون قيمتها لأنها دائماً في وجههم، وكذا الليل والنهار، فلذلك اعتادوا على هذه الظواهر ولم يعيروها التأمل، مع ما تحمل لهم ولا استقرارهم على الأرض من أهميّة.

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، ج 10، ص 501.

(2) م.ن، ج 10، ص 499.

هذه السورة كغيرها من السور التي تأتي على ذكر الظواهر الكونية تريد للإنسان أن ينظر إلى أبعد من أفق ذاته، ولا يحشر نفسه في محدوديتها، وبذلك تكون نظرته شمولية للكون، فيتسع أفق تفكيره ويكبر. كما أن التفكير في عظمة الظواهر الكونية «المعلول، المخلوق» يدلنا على عظمة موجدها «العلّة، الخالق»، وبذلك تنتعش النفس الإنسانية بالإيمان والتقوى والصلاح والطمأنينة.

2. الذكر والأنثى: السورة المباركة أيضاً تُلقت إلى ازدواجية الحياة الإنسانية، وأن هناك أنثى وذكراً، رجلاً وامرأة، ولكل منهما قيمته عند الله، فلولا الرجل ما كانت المرأة، ولولا المرأة ما كان الرجل، ولا عمّرت الأرض بسكانها. فالمرأة والرجل شريكان في هذه الحياة، وعلى كل منهما أن يقوم بدوره وأن يأخذ حقه ويُعطي الحق للآخر. والمراجع للتاريخ يرى أن الإنسانية ظلمت المرأة عند كل مفصل ابتعدت فيه عن الرسائل الإلهية.

فمثلاً عند عرب الجاهلية لم يكن للمرأة وزن، وكانت لا تترث، وزواجها يرجع إلى أمر وليها من دون أن يكون لها حق الاعتراض ولا المشورة، حتى أن الولد يمنع أرملة أبيه من الزواج.

وكانت المرأة تُمنع من الزواج إلا من قريبها لوجود حق الدم عليها. وكانوا يفرحون إذا ولد لهم ولد ذكر، ويفتمّون إذا ولد لهم أنثى، إلى حدّ وأد البنات ودفنهنّ حيّات، كما يذكر القرآن الكريم في عدّة آيات:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ ﴾ (1).

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ٩ ﴾ (2).

ففي التوراة المحرّفة: «درت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمةً وعقلاً، ولأعرف الشرّ أنّه جهالة، والحماسة أنّها جنون، فوجدت أمرّ من الموت المرأة التي هي شباك،

(1) سورة النحل، الآية 58.

(2) سورة التكويد، الآيتان 8-9

وقلبها أشراك، ويدها قيود،... رجلاً واحداً بين ألف وجدت أمّا امرأة فيبين كلّ أولئك لم أجد»⁽¹⁾.

ولم ينحصر الظلم بعرب الجاهلية بل حتّى بعض الفلاسفة ظلموا المرأة بأرائهم، يقول الفيلسوف «روسو»: «إنّ المرأة لم تُخلق للعلم ولا للحكمة ولا للتفكير ولا للفنّ ولا للسياسة، وإنما خلقت لتكون أمّاً تغذي أطفالها بلبنها».

هذا كلّه بخلاف الإسلام الذي رفع من قيمة المرأة وعرفها حقيقتها وأكد مسؤوليتها كما الرجل، في كثير من آيات القرآن، ومنها هذه الآيات: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۗ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۚ﴾ (٤) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۚ﴾ (٣) ﴿إِنَّ

كُلَّ ذَلِكَ يَشْمَلُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ، فكلاهما مسؤول وكلاهما مثاب أو معاقب.

لذلك يقول تعالى مؤكداً مسؤوليّة المرأة، وقدرتها على التكامل الإنساني كما الرجل:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِعِينَ وَالصَّانِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۗ﴾ (2).

إلى غير ذلك من الآيات التي تشير إلى هذه الحقيقة.

3. الهداية والإرادة: فقله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ يشير إلى حرية الإرادة الإنسانية

ذكراً كان الإنسان أو أنثى، وكون الإنسان مريداً مختاراً للطريق الذي يسلكه إمّا التقى فالجنة وإمّا التكذيب لله ورسوله فالنار.

ثم إنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

إشارة إلى أنّ الله تعالى لم يترك الإنسان دون أن يُعطيه سبل الهداية، حيث خلقه عاقلاً مختاراً، وأرسل له الرسل وأنزل الكتب الإلهية، لا سيّما خاتم الرسل

محمد ﷺ، وخاتمة الرسالات الإسلام العظيم، والقرآن الحكيم.

(1) انظر: سفر الجامعة، الإصحاح السادس من العهد القديم.

(2) سورة الأحزاب، الآية 35.

المفاهيم الرئيسية

- تُركّز سورة الليل على القيامة وما فيها من ثواب وعقاب.
- تُحفّز هذه السورة المباركة العقل والفكر على التأمل في الظواهر الكونيّة واستخلاص النتائج والعبر.
- لفتت هذه السورة إلى ازدواجيّة الحياة الإنسانيّة المؤلّفة من ذكر وأنثى، متابعة لمنهج الرسالات السماويّة وخاصّة الإسلام الذي عرّف حقيقة الوجود الأنثويّ وأكد مسؤوليّة المرأة في الحياة وقيمتها كما الرجل.
- أشارت الآيات الواردة فيها إلى حرّيّة الإرادة الإنسانيّة واختيار الإنسان للطريق الذي يسلكه.

الدرس العثرون

مفاهيم قرآنية

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- 1 . يعرف أهميَّة الخشوع في العبادة.
- 2 . يشرح الخطوات العملية في تحضير القلب في الصلاة.
- 3 . يفهم العبر المستفادة من قصة طالوت.

المفهوم الأول: الخشوع في الصلاة

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (1).

1. أهمية الخشوع:

إن لكل عبادة جسداً وروحاً، وروح العبادة الإخلاص وهو ما لا يتحقق دون حضور القلب وخشوعه حيث إن المدار عليه وهو الرئيس في هذه المملكة وسائر الجوارح تابعة له خاضعة لأوامره لذلك قال النبي ﷺ: «أما أنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه» (2) حينما رأى رجلاً يعبث في صلاته وما من شك أن هذا الظاهر غير المقبول هو انعكاس للباطن وحاك عنه بما يتضمّن من آفات ومشكلات وهذا مراد الحديث المتقدم في الربط والتأثير بين القلب والجوارح وتبعيتها له، وبإمكاننا القول إن الصلاة التي لا تُرفع هي من هذا القبيل حيث يكون المصلّي في حركاته الظاهرية قائماً بين يدي الله تعالى لكنّه في قلبه مشغول بسواه يُفكّر في تجارته أو ممتلكاته أو زوجته أو سائر أمور دنياه، أو أنّه قد شطّط أفكاره إلى حيث قاده طائر الخيال بعيداً عن كعبة مقصوده ليفرغ من صلاته وهو غير ملتفت في أي وقت بدأها، غير متذكّر لشيء قام بأدائه من أركانها أو أجزائها، يقول الإمام الخميني رضي الله عنه: «اعلم أنّ التفرّغ للعبادة يحصل من تكريس الوقت والقلب لها والعبادة من دون حضور القلب غير مجدية وما يبعث على حضور القلب أمران: أحدهما تفريغ القلب والوقت للعبادة وثانيهما: إفهام القلب أهميّة العبادة» (3).

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 1 و 2.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 48، ص 239.

(3) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، ص 54.

ينبغي للمصلي إحضار قلبه في تمام الصلاة أقوالها وأفعالها فإنه لا يحسب للعبد من صلاته إلا ما أقبل عليه ومعناه الالتفات التام إليها وإلى ما يقول فيها والتوجه الكامل نحو حضرة المعبود جل جلاله واستشعار عظمته وجلال هيئته وتفريغ قلبه عما عداه⁽¹⁾.

2. كيف نحضر القلب؟

عرفنا أن إحضار القلب في العبادة يُمثل روحها وهو أمر لا غنى عنه لكن ما هو الطريق إلى ذلك؟

يذكر علماء الأخلاق ثلاثة أمور تُساعد على ذلك وهي:

الأول: أن يُفَرِّغ نفسه قبل الدخول في الصلاة من الأفكار والهموم الدنيوية أو المعضلات العلمية وسائر ما يُشغله عن التوجه إلى المقصود الحقيقي حتى وإن كانت المسألة المطلوب حلها أخروية كما لو كان يبحث عن دليل شرعي على مسألة ما وبقي البحث يُشغل ذهنه إلى أن دخل في صلاته وانتهى وهو يُفكّر ويعمل جهده في طلب الحل، فإن هذا ممّا لا يجتمع قطعاً مع حضور القلب وإنما الواجب هو الانتهاء من حل تلك المسألة قبل الدخول في الصلاة حتى لا يكون في قلبه سوى الله تعالى.

الثاني: إفهام القلب أهمية العبادة في ظاهرها وباطنها وشكلها ومضمونها بما تمثله من صلة بين الخالق والمخلوق وغاية في الخلق والبعث وذلك كمقدمة لحضور القلب قبل الابتداء بالصلاة.

الثالث: وهو وظيفة مختلفة عن الأمرين الأولين حيث هما مطلوبان قبل الشروع بالعبادة بينما هنا المطلوب هو أثناءها بأن يتأمل في معاني ما يقوله في صلاته وأن يتابعها بتأن وإمعان لا لقلقة لسان دون معرفة المعاني كالذي يلهج بذكر: سبحان ربي الأعلى وبحمده وفي نفس الوقت يكون ذهنه منشغلاً في حساب الأرباح اليومية لمبيعات متجره. ويشير إلى ضرورة التأمل والتفكير في معانيها قوله ﷺ في وصاياها لأبي ذر رضي الله عنه: «يا أبا ذر ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه»⁽²⁾.

(1) الإمام الخميني، تحرير الوسيلة، ج 1، ص 155.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 77، ص 82.

3. صلاة الخاشعين:

إنَّ هناك فرقاً شاسعاً بين صلاة الخاشعين وغيرهم نضهمه من خلال القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾⁽¹⁾ فإنَّ من يُصليَّ بهدف التخلّص من مسؤوليّة الوجوب وليس بدافع خشوعه القلبي لله واستغراقه في ذاته سبحانه، يحسّ بثقل الصلاة وكأنّها مشكلة له ويتمنّى في أثناء صلاته بين آونة وأخرى أن تنتهي بسرعة كي لا تشغله عن متابعة أعماله ويرى بأنّها قد زاحمت أشغاله واعترضت سيره، فيأتي بها باعتقاد وجوبها مع الإحساس بمشقتها كأنّه يغفل عن مرور الزمن عليه حال الصلاة، فلا نتصوّر أن تكون الصلاة الموصوفة بهذا الوصف أي أنّها كبيرة إلا على الخاشعين عبارة عن صلواتنا التي قد تكون نقرأ كنقر الغراب ولذلك كان الجزء كبيراً لمن قدر على حدود الصلاة كما حدّثنا عنها النبي ﷺ قائلاً: «من صلى ركعتين لم يحدث فيها نفسه بشيء من الدنيا غفر له ما تقدّم من ذنبه»⁽²⁾ وعنه ﷺ أيضاً: «إذا قام العبد إلى صلاته وكان هواه وقلبه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمّه»⁽³⁾.

4. خشوع أهل البيت ﷺ:

إنّ الحالات التي وصل إليها أهل العصمة والطهارة ﷺ بدءاً من جدّهم المصطفى ﷺ وختماً بالوصي القائم ﷺ لم يصل إليها نبيّ مرسل ولا ملك مقرب كما جاء صريحاً عنهم فكيف كان خشوعهم في الصلاة؟!

أ. خشوع النبي ﷺ:

في الحديث: «كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة تربّد وجهه خوفاً من الله تعالى»⁽⁴⁾.

ب. خشوع أمير المؤمنين ﷺ:

عن مولانا الصادق ﷺ: «كان علي إذا قام إلى الصلاة فقال: وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض تغير لونه حتى يعرف ذلك في وجهه»⁽⁵⁾.

(1) سورة البقرة، الآية 45.

(2) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء، ج 1، ص 349.

(3) م.ن، ص 382.

(4) الميرزا النوري، مستدرک الوسائل، ج 4، ص 93.

(5) م.ن.

ج. خشوع الصديقة الزهراء عليها السلام :

عن رسول الله ﷺ: «أما ابنتي فاطمة فإنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.. متى قامت في محرابها بين يدي ربها جل حلاله زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض يقول الله عز وجل لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى أمتي فاطمة سيدة إمائي قائمة بين يدي ترتعد فرائصها من خيفتي وقد أقبلت بقلبها على عبادتي»⁽¹⁾.

5. كيف نعلم بقبول صلاتنا؟

ربما يبدو وللوهلة الأولى أن الجواب صعب لكنه على العكس تماماً فإن الحصول عليه ممكن قبل يوم الحساب ووضع الأعمال في الميزان وذلك ما أشار إليه مولانا الصادق عليه السلام قائلاً: «من أحب أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر فبقدر ما منعه قبلت منه»⁽²⁾.

فالصلاة التي تحمل هذا الأثر تكتب وترفع وأما الفاقدة له فترد ويضرب بها وجه صاحبها.

6. حق الصلاة:

في رسالة الحقوق لسيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام: «حق الصلاة أن تعلم أنها وفادة إلى الله تعالى، فإذا علمت ذلك قمت مقام الذليل الحقير الراغب والراهب الراجي الخائف المسكين المتضرع لمن كان بين يديه بالسكون والوقار، وتقبل عليها بقلبك وتقيمها بحدودها وحقوقها مع الإطراق وخشوع الأطراف ولين الجناح وحسن المناجاة له في نفسه والرغبة إليه في فكاك رقبتك التي أحاطت بها خطيئتك واستهلكتها ذنوبك»⁽³⁾.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج70، ص400.

(2) م.ن، ج16، ص204.

(3) الإمام السجاد عليه السلام، رسالة الحقوق (حق الصلاة).

المفهوم الثاني: قصة طالوت والقائد الصالح

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَفُوا بِاللَّهِ كَمَ مِن فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ۝ ﴿١﴾ .

القصة

عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «إن بني إسرائيل بعد موسى عملوا بالمعاصي وغيروا دين الله وعتوا عن أمر ربهم، وكان فيهم نبي يأمرهم وينهاهم فلم يطيعوه، فسلط الله عليهم جالوت وهو من القبط، فأذلهم وقتل رجالهم وأخرجهم من ديارهم وأخذ أموالهم واستعبد نساءهم، ففزعوا إلى نبيهم وقالوا: سل الله أن يبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، وكانت النبوة في بني إسرائيل في بيت، والملك والسلطان في بيت آخر، لم يجمع الله لهم النبوة والملك في بيت واحد، فمن ذلك قالوا: ﴿ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فقال لهم نبيهم: ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا

وَمَا لَنَا إِلَّا نَفْتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَانًا ﴿١﴾ وكان كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾⁽¹⁾، فقال لهم نبيهم: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ فغضبوا من ذلك وقالوا: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ وكانت النبوة في ولد لاوي، والملك في ولد يوسف، وكان طالوت من ولد ابن يامين أخي يوسف لأمه، لم يكن من بيت النبوة ولا من بيت المملكة، فقال لهم نبيهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ وكان أعظمهم جسمًا، وكان شجاعًا قويًا، وكان أعلمهم، إلا أنه كان فقيرًا فعابوه بالفقر، فقال لهم نبيهم: ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ تبركون به، فلما حضر موسى الوفاة وضع فيه الألواح ودرعه وما كان عنده من آيات النبوة وأودعه يوشع وصيه، فلم يزل التابوت بينهم حتى استخفوا به، وكان الصبيان يلعبون به في الطرقات، فلم يزل بنو إسرائيل في عز وشرف ما دام التابوت عندهم، فلما عملوا بالمعاصي واستخفوا بالتابوت رفعه الله عنهم، فلما سألوا النبي وبعث الله إليهم طالوت ملكًا يُقاتل معهم ردَّ الله عليهم التابوت، كما قال الله: ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ والبقية: ذرية الأنبياء، وقوله: ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فإن التابوت كان يوضع بين يدي العدو وبين المسلمين فتخرج منه ريح طيبة لها وجه كوجه الإنسان⁽²⁾.

الدروس المستفادة من هذه القصة

صفات القائد بين الاختيار الإلهي والاختيار البشري

تحكي لنا هذه القصة التي جرت مع بني إسرائيل عن تلك الصفات التي ينبغي أن يتمتع بها القائد، والتي تكون معياراً يؤهله لأن يكون له أمر قيادة الناس إلى ما فيه صلاحهم

(1) سورة البقرة، الآية 246.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 13، ص 440.

وخيرهم، كما تحكي عن الصفات والموازين التي يراها الإنسان المادي معياراً لذلك وتبين خطأ تلك المعايير البشرية.

أ. المعايير الإلهية:

ورد في هذه الآية ذكر صفتين من الصفات التي لا بدّ وأن تتوفر في الإنسان الذي يُراد له أن يكون قائداً يسير الناس خلفه في المطالبة بحقوقهم والدفاع عن وجودهم وكيانهم، وهما:

أولاً: العلم

إن الصفات التي تؤهل الشخص للقيادة - في تعاليم الإسلام - لها علاقة بالصفات الشخصية التي يتمتع بها، وعلى رأسها العلم، وهي الصفة التي تؤهل الإنسان لأن يكون قائداً وأميراً على القوم.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «ما وُلّت أمة قطّ أمرها رجالاً وفيهم أعلم منه إلا لم يزل أمرهم يذهب سفلًا حتى يرجعوا إلى ما تركوا»⁽¹⁾. ونحن نلاحظ أن الله تعالى وصف طالوت بأنّه زاده بسطة في العلم، أي إنه كان يفضل عليهم بالعلم، لا أنه كان يساويهم.

ثانياً: صفات وقدرات جسمية

لا يكفي في القائد أن يكون عالماً بل ينبغي أن يكون ذا صفات وقدرات جسمية تؤهله للقيادة بحسب ما يفترضه هذا المقام، وما تقتضيه المهام الملقاة على عاتقه، وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام: «يحتاج الإمام إلى قلب عقول، ولسان قوول، وجنان على إقامة الحقّ صوول»⁽²⁾.

فلا بدّ وأن يكون القائد قويّ القلب يتمكّن من اتخاذ قرارات حاسمة في بعض المواطن التي قد يتردّد فيها الإنسان العادي.

كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «إن أحقّ الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه، فإن شغب شاغب استعتب، فإن أبي قوتل»⁽³⁾.

(1) بحار الأنوار، ج31، ص418.

(2) الليثي، عيون الكم والمواعظ، ص556.

(3) نهج البلاغة، ص247.

ويصف الإمام علي عليه السلام مالك الأشر في كتابه لأهل مصر لما ولّاه مصر يقول:
«أما بعد، فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعداء
ساعات الروع، أشد على الكفار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج، فاسمعوا
له وأطيعوا أمره في ما طابق الحق، فإنه سيف من سيوف الله لا كليل الظبة ولا نابي
الضريبة. فإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تقيموا فأقيموا»⁽¹⁾.

ب. المعايير البشرية:

أولاً: النسب والحسب

فإن الكثير من الناس يظنّ أنه إذا كان صاحب نسب بأن كان من سلالة كان لها الحكم
والسلطة والإمرة والقيادة فإن هذا يؤهله لأن يكون أحقّ من غيره لهذا المنصب والمقام.
كما احتجّت قريش على أن الخلافة لا بدّ وأن تكون فيها لأنها أقرب إلى رسول الله، فهي
افتخرت بنسبها مع أن النسب ليس معياراً لمقام الإمامة والقيادة.

ثانياً: سعة المال

يرى بعض الناس أنّ من لا يكون صاحب حسب ونسب فلا بدّ وأن يكون صاحب مال يجبر
فيه ما ينقصه من الحسب والنسب، وهذا المنطق هو منطق أهل الشرك والضلال.
ومن هنا نجد أن الناس تميل إلى احترام صاحب المال لما يملكه من مال، وهذا الاحترام
احترام مؤقت فإذا زال ما عنده من المال ترك الناس ذلك الاحترام، ولهذا لا يصحّ أن يكون
امتلاك المال معياراً في القيادة، بل لا بدّ وأن تكون الصفة التي تجعل الشخص أهلاً للقيادة
من الصفات التي لا تقبل الزوال كالعلم.

الابتلاء والاختبار الإلهي

هل يكفي إعلان الناس عن استعدادهم للقتال والجهاد لكي يمشي القائد بهم إلى الحرب
والقتال؟ لا، بل لا بدّ له من أن يمتحنهم ليعرف منهم الطاعة والالتزام بأوامره ونواهيته وهذا
ما حصل مع طالوت عليه السلام فقد أراد الله أن يختبر هؤلاء الذين أرادوا قتال عدوهم قبل أن

(1) نهج البلاغة، الكتاب 38، من كتاب له إلى أهل مصر لما ولي الأشر مصر.

يقع القتال، وفي هذا الاختبار تمكّن القائد طالوت من معرفة من أخلص النية في الجهاد والقتال ممن مشى معه لمصالح آنية أو لأنه رأى الناس تمشي فمشى بمشيهم. وهكذا تظهر أهمية الطاعة للقائد، وأنه ما لم تُعلم الطاعة فإنّ على القائد أن لا يُقدم على الحرب والقتال فإنّ ذلك قد يترتب عليه الهزيمة والخسران.

لقد كانت نتيجة هذا الاختبار أن لا تثبت سوى الفئة القليلة ولكن هذه الفئة القليلة تمتاز بأنّها مؤمنة ومخلصة ولذلك فإنّ النصر سوف يكون حليفها بإذن الله تعالى.

وقد ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «يحقّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدّي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحقّ على الناس أن يسمعوا له ويطيعوا ويُجيبوه إذا دعا»⁽¹⁾.

(1) المتقي الهندي، كنز العمال، ج5، ص764.

المفاهيم الرئيسية

- الخشوع هو روح العبادة التي ترفعها إلى مقام القبول والفوز بالفلاح والنجاح.
- إن إحصار القلب ثلاثة أمور: تفرغ النفس قبل الصلاة، وإفهام القلب أهميتها، والتأمل في معانيها.
- لم يصل أحد من الأنبياء المرسلين والملائكة المقربين إلى مرتبة خشوع النبي ﷺ وأهل بيته ﺍﻟﻤﻮﺗﻤﻨﻴﻦ .
- إن من حق الصلاة أن تُقبل عليها بقلبك مع خشوع الأطراف ولبين الجناح.
- تتضمن قصة طالوت مفاهيم تربوية تتعلق بمسألة صفات القائد ولزوم طاعته.
- في صفات القائد معايير إلهية ومعايير بشرية. أما المعايير الإلهية فهي ترجع إلى صفتين في القائد: العلم، وقوة الجسم والشجاعة. وأما المعايير البشرية فهي ترجع إلى صفتين: النسب والحسب، المال والثروة.
- الدليل على كون المعيار الصحيح هو العلم وقوة الجسم أن هاتين الصفتين بهما يتمكن القائد من تحقيق النصر وأما الحسب والثروة مع الجهل والضعف فنتيجته الهزيمة.
- إن امتحان الناس واختبارهم لازم وضروري قبل إقحامهم في الحرب والقتال، لأن كثيراً من الناس قد يتراجعون عند أول مواجهة.



مركز نون
للتأليف والترجمة

مركز نون، من مؤسسات جمعية المعارف الإسلامية،
يختص بتخطيط البرامج والمتون التعليمية والثقافية،
وتأليف وإعداد المتون التعليمية والثقافية العامة،
مراعياً القواعد المنهجية والبحثية والتربوية، وحفظاً لأصالة الإسلام.



جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

لبنان - بيروت - المعمورة - الشارع العام

تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142

www.almaaref.org

Email: info@almaaref.org



1037002